الأهرام

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية

نهاية التاريخ

مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى

دكتور عبد الوهاب المسيرى

٣

نهاية التاريخ

مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني

دكتور عبد الوهاب المسيري

المحتويات

صفحة

صفحة

مقـدمة

وشـكر واهـداء

لعله من العسير علينا ونحن فى معركتنا اليومية مع العـدو الصهيونى الشرس أن نحاول ايجاد مسافة وبعد ما بيننا وبينه لندرس أفكاره وآراءه بنفس الطريقة التى ندرس بها أى فـكر واى رأى ، ولنعرف منطلقه الفلسفى ولنصنفه ونضعه فى مكانه بين الفلسفات السياسـية الأخرى . وحتى لو نجحنـا فى ذلك ستدور فى ذهننا تساؤلات عدة : ما جدوى مثل هذه الدراسة ؟ وهل سيمكن للكلمات أن توقف الدم الفلسطينى النازف أو أن تعيد الشعب الطريد والأرض المسلوبة ؟ والاجابة ستكون ولا شك بالنفى ، فالكلمة لا تحل محل الحركة ، والتفلسف لا يمكنه أن يحل محل الفعل الفاضل ، والنظرية تظل دائما أكثر فقرا من الواقـع الثرى .

ولكننا سنكون بلا شك مخطئين أشد الخطأ ان وضعنا النظرية فى مقابل الواقع ، والكلمة فى مقابل الحركة ، والتفلسف فى مقابل الفعل ، فالواحد لا يغنى عن الآخر . ولكن التعامل مع الواقع دون معرفة نظرية هو كالوثوب فى البحر بحماس دون معرفة سابقة بالسباحة ، وكذلك التنظير دون العمل هو كتعلم السـباحة من الكتب دون الاقتراب من البحر . وعدونا نفسه يضرب لنا المثل

على ذلك ، فهو عدو عملى للغاية ، بل غير انسانى وغير أخلاقى فى عمليته ، الا أن علماءه ينفقون الساعات الطوال فى دراسة صحفنا الأدبية ومجلاتنا الفكرية وفى تحليل أعمال نجيب محفوظ والبياتى وفى ترجمة مسرحيات توفيق الحكيم وفى دراسة علاقة الطرق الصوفية بالتنظيمات الحرفية العمالية ! وهم لا يفعلون ذلك مدفوعين بحب مجرد أو خالص للمعرفة كنهاية فى حد ذاتها (وهو حب نفقد روحنا وضمائرنا ان فقدناه) بل يستفيدون بدراساتهم استفادة جمة ، فهم « يفرغونها » الى أسس عامة يمكنهم فى ضوئها التعرف على حركة الحضارة العربية وفهم طبيعة السلوك العربى واتخاذ قرارات يومية مدروسة . واذا كان هذا هو حال عدونا معنا ومع فكرنا ، فان دراستنا النظرية للفكر والتاريخ الصهيونى له أهمية مضاعفة ، لأنه فى المجتمعات التى يسود فيها « الوعى الزائف » تلعب الأفكار دورا فعالا نظرا لانفصال الجماهير عن واقعها الاجتماعى والتاريخى ، والمجتمع الاسرائيلى — فى تصورى — مجتمع يسيطر عليه الوعى الصهيونى الزائف .

وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أقدم دراسة لما سميته « بنية الفكر الصهيونى » وجذورها التاريخية ، آملا بذلك أن أبين طبيعة الصهيونية لا كتحرك سياسى وحسب ، بل وكحركة حضارية فاشية تحاول أن تفرض قيما لا عقلانية متخلفة (رغم كل ما يقال عن التقدم التكنولوجى الاسرائيلى) . ولكن على الرغم من طابع هذه الدراسة النظرى الا أنها تحاول أن تصل الى الأساس الفلسفى الذى يستند اليه الواقع الاسرائيلى ، مما قد يسهل على الباحث العربى فهم واستيعاب هذا الواقع . فعلى سبيل المثال حاولنا فى هذا البحث ايضاح وحدة بنية الفكر الصهيونى وتجانسها رغم اختلاف المحتويات الايديولوجية من مدرسة صهيونية لأخرى ،

واكتشاف مثل هذه الحقيقة قد يلقى بعض الضوء على الحياة السياسية فى اسرائيل بصراعاتها الحزبية وبتآلفاتها الوزارية التى لا يمكن فهمها اذا ما طبقت المقاييس السياسية المألوفة والمتعارف عليها . كما ان دراستنا للاعقلانية الصهيونية ومثاليتها الفلسفية ستمكننا من معرفة الأبعاد الحقيقية لشراسة العدو ولا إنسانيته واصراره على رفع شعارات مثل « اسرائيل الكبرى » و « حدوده الطبيعية التى ورد ذكرها فى التوراة » . بل اننا سنتبين من دراستنا أن مثل هذه الشعارات ليست مجرد أكاذيب يطلقها للاستهلاك المحلى فى اسرائيل أو من قبيل الارهاب لتحسين موقفه فى المفاوضات ، بل هى شعارات يدين لها عدونا بالولاء الكامل . وما قد يبدو لنا ، وللجميع ، على أنه أكاذيب وأساطير هو بالنسبة له مثل البديهيات (ومن هنا احساس اليهود والاسرائيليين الدائم بالاضطهاد حتى بعد أن ابتلعوا الوطن الفلسطينى كله) . وفى دراستنا للعنف حاولنا أن نبين أن العنف ليس ظاهرة عرضية فى الصهيونية ، وانما هو نتيجة حتمية لموقف متكامل ، بل ان بعض الصهاينة ليعتبرون ارتكاب العنف عملا ايجابيا من الناحية السيكولوجية ، ولعل هذا ينبهنا أنه لا حدود لما قد يرتكبه عدونا من جرائم . والربط بين الأساس الفلسفى والموقف السياسى ليس أمرا مستحدثا أو غير مألوف ، بل ان العدو نفسه فى بعض الأحيان يفسر مواقفه السياسية بل والعسكرية على أساس رؤيته الفلسفية . وعلى سبيل المثال نشر فى ملحق **النيويورك تايمز** الاسبوعى الصادر بتاريخ ١٨ ابريل ١٩٧١ مقالا بقلم أمنون روبنشتين (عميد كلية الحقوق فى جامعة تل أبيب) يرجع فيه الكاتب رفض الاسرائيليين المتكرر للسلام الى كراهية اليهود المتأصلة (وكراهية الاسرائيليين من بعدهم) للجوييم (الأغيار أو غير اليهود من الناس) ، وهذه قضية عالجناها فى هذه الدراسة .

وبعد — هذه هى بعض الفوائد « العملية » والمباشرة لمثل هذه الدراسة ، ولكن الفوائد غير المباشرة عديدة هى الأخرى ، ولعل أهمها أننا بمحاولتنا دراسة الفكر الصهيونى دراسة موضوعية نكون قد ذكرنا الحقيقة ، وذكر الحقيقة فى عالمنا هذا هو أكثر الأمور ثورية ، اذ أن الحقيقة ، والحقيقة وحدها ، هى التى ستحررنا من أوهامنا ومن ضلالات الآخرين .

وفى الختام أحب أن أتوجه بالشكر الى الصديق الأستاذ تحسين بشير الذى أهدى له هذا الكتاب لتشجيعه لى بل ولاصراره على أن أنهى كتابته ، فكثيرا ما سئمت الكلمات ولكنه كان دائما نعم الصديق والمعلم ، والى الدكتور اسامة الباز الذى تفضل بقراءة مخطوط الكتاب ومناقشة ما جاء فيه معى ، والى الملحقين الدبلوماسيين أعضاء الدورة الرابعة بالمعهد الدبلوماسى الذين استمعوا لمحاضراتى عن موضوع الفكر الصهيونى وكان لأسئلتهم الخلاقة أكبر الفضل على فى تطوير أفكارى وتحديدها ، والى الدكتور حسن ظاظا عميد الدراسات العبرية فى جمهورية مصر العربية والدكتور رشاد الشامى والدكتور ابراهيم البحراوى والأستاذ محمد سيد أحمد لتعليقاتهم على هذا الكتاب ، والى الأستاذين حاتم صادق وسميح صادق بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية لقبولهم وتحمسهم لنشر هذا البحث ولصبرهم على تأخرى المتكرر فى التقدم به ، والى الأستاذ محمد عرفى الذى كتب المخطوط على الآلة الكاتبة وحل طلاسم خط يدى .

تمهيد

الصهيونية بنية فكرية أسطورية

من العسير علينا ان نعتبر الصهيونية ايديولوجية بالمعنى الشائع للكلمة ، فهى لا تقدم نظاما للقيم أو نظرة شاملة للعالم السياسي والاقتصادى وانما هى « موقف عام من الحياة » وافكار مجردة مرتبط بعضها بالبعض بشكل منطقى هندسى متسق مع نفسه .

وقد يمكن القول أن الأيديولوجية ، أى ايديولوجية ، ان هى الا « موقف عام من الحياة » ، وهذا قول قد يكون مقبولا ، ولكنه يحتـــاج الى كثير من التعديل . فنحن نعرف أن ثمة علاقة ما بين الأيديولوجية والواقع المادى ، وهى علاقة مركبة للغاية لم تدرس بما فيه الكفاية حتى الآن ولا تزال بعض جوانبها سرا مغلقا بالنسبة لنا . ولكننا دون شك يمكننا أن نرى ثمة عناصر تدخل فى تركيب الأيديولوجية هى أقرب للأساس الاقتصادى للمجتمع من غيرها ، فالنظريات السياسية والقوانين هى نتاج شبه مباشر لحركة المجتمع الاقتصادية ، فى حين أن علاقة الشعر والموسيقى باقتصاديات المجتمع ليست بنفس القوة ، واذا بدأنا فى تقييم قصص الأطفال والأساطير الشعبية وجدنا انه ليس من السهل علينا التعرف على علاقتها بالواقع الاقتصادى الذى أنتجها ، أما اذا درسنا اللغة وقوانين النحو والصرف فاننا نكون قد دخلنا فى مجال بعيد كل

البعد عن الأساس الاقتصادى للمجتمع . اذا وضعنا هذا الجانب من الايديولوجية فى الاعتبار لامكن أن ننظر الى الصهيونية على أنها مجموعة من الأفكار الأسطورية المجردة التى ضعفت صلتها بالواقع الاقتصادى الذى أنتجها ، ســواء كان الجتو الأوروبى الصغير أم الجتو الاسرائيلى الكبير ، ولأمكن أن ننظر الى اتساقها مع نفسها على أنه ليس انعكاسا للواقع الموضوعى ، وانما هو تعبير عن محاولة الهروب منه وأداة لتجاهله .

وضعف علاقة الرؤية الصهيونية بالواقع الاقتصادى حقيقة ترجع هى ذاتها الى أسباب اقتصادية تاريخية ، فأقليات اليهود المختلفة فى أوروبا (وهى الأقليات التى أفرز وضعها الفكر الصهيونى) لم يكن لها علاقة محددة بوسائل الانتاج ، ولذا لم يكن وعيهــا السياسى محددا واضحا : فعدم وجود مكان محدد لليهود فى المجتمع، وعدم انتمائهم لقوى اجتماعية واضحة ، وتخلفهم الحضـــارى (خاصة فى شرق أوروبا) كل هذا جعلهم غير قادرين على التعامل مع الواقع المتقدم من حولهم ، مما أدى الى افراز فكر له طابع مجرد أسطورى ، ساعد الجماهير البورجوازية الصغيرة وقيادتها الصهيونية على أن تنظر لنفسها على أنها شعب مقدس مختار . وقد بين الأستاذ قدرى حفنى فى كتابه **تجسيد الوهم** أن وضع اليهود الحضارى فى الجتو ضخم من احساسهم بالاضطهاد والتفرد ، فاذا أردت ترجمة هذا المصطلح السيكولوجى الى مقابلة الفلسفى لقلت أن وضعهم فى الجتو جعلهم ينظرون الى أنفسهم على أنهم خارج التاريخ يحيون حياة « مثالية » مجردة . وعن طريق هذه الأفكار المجردة أمكن للصهيونية تجنيد جماهير البورجوازية الصغيرة اليهودية فى أوروبا الشرقية ، وعن طريقها لا تزال قابضـــة على الاسرائيليين تسيرهم وتوجههم .

هذه البنية المحددة المعالم للفكر الصهيونى مستمدة فى واقع الامر من الأساطير اليهودية الدينية القومية مثل أسطورة الأمة المختارة وشعب الكهنة وأرض الميعاد ، وهى أساطير ساعدت اليهود عبر تاريخهم على الانسلاخ عن واقعهم التاريخى ، وعلى اضفاء طابع صوفى مجرد على أنفسهم . والصهاينة يدورون داخل اطار هذه الأساطير ، فالاستعمار الاستيطانى لأخذ بلاد الشرق الأوســط

العربية لايستند فى تصورهم الى مخطط استعمارى ولا يصدر عن مصالح اقتصادية محددة ، وانما هو مجرد عودة الشعب الى أرض الميعاد . والمهاجرون اليهود ليسوا بمستعمرين استيطانيين ، وانما مجرد « معفيليم » أى « مجاهدون فى العودة الى أرض اسرائيل » كما جاء فى العهد القديم . والعنصرية الصهيونية ليست عنصرية على الاطلاق ، وانما هى تعبير عن ارادة الشعب المختار ذى الرسالة الخالدة . أما الفلسطينيون فيذوبون فى هذا البنيان الفكرى المجرد ، ويصبحون مجرد كنعانيين : سكان مؤقتين فى هذه الأرض المقدسة لابد من ابادتهم حتى يتسنى تحقيق الوعد الالهى .

هذه البنية الأسطورية وضعت فيها « محتويات » فكرية وحضارية ودينية وسياسية كثيرة ، ولكنها كلها تأتى فى المرتبة الثانية بعد المقولات الصهيونية الأساسية . فجميع المفكرين الصهاينة متفقون على أهمية الدولة اليهودية : دولة تضم كل أبناء الشعب المختار المشتتين فى أركان العالم ، أما المحتوى الاجتماعى أو حتى الدينى — الأخلاقى لهذه الدولة فمسألة مؤجلة حتى وقتنا هذا . فلا الاشتراكيون يصرون على اشتراكيتهم (فحزب المابام « اليسارى » مثلا يؤيد التدخل الأمريكى فى فيتنام ، ولا يعارض الاستثمارات الأجنبية والخاصة فى اسرائيل) ، ولا الليبراليون يصرون على علمانيتهم ، ولا الرأسماليون يصرون على رأسماليتهم (فحزب الماباى يدخل فى تحالف مع الأحزاب الدينية مطلقا يدها فى كثير من جوانب الحياة فى اسرائيل العلمانية ، كما أن الأحزاب اليمينية لا ترفض التحالف مع الأحزاب اليسارية وتتقبل بعض السمات الاشتراكية او « الجماعية » التى تتسم بها الحياة فى اسرائيل) ، ولا الدينيون يصرون على تطبيق مثلهم « الروحية الدينية » (وان كانوا هم أكثر القطاعات اصرارا على أيديولوجيتهم داخل المجتمع الاسرائيلى) .

الصهيونية اذن فكر سياسى ياخذ شكل بنية فكرية متسقة لا تختلف فى تركيبها كثيرا عن الأساطير اليهودية الدينية ، وهى بنية فكرية سياسية تستغل الدين اليهودى لتكتسب بعدا تاريخيا وانسانيا ، كما انها تستغل كثيرا من الأفكار السياسية العلمانية والثورية لاضفاء صبغة علمانية او ثورية على نفسها .

وقد تنبه كثير من الصهاينة لهذه الحقيقة ، فالحاخام صموئيل حاييم لانداو Samuel Hayyim Landau (١٨٩٢ — ١٩٢٨) يرى أن البرنامج الصهيوني يدور حول فكرة واحدة « أما كل القيم الأخرى فما هي الا أداة في يد هذا **المطلق** الأمة » (٣٠٨) (١) . ويوضح جاكوب كلاتزكين Jacob Klatzkin (١٨٨٢ — ١٩٤٨) ، الفيلسوف الصهيوني البولندي الأصل ، القضية بشكل ينم عن الذكاء في مقاله « الحدود » ، فهو يبين أن اليهودية « تعتمد على الشكل وليس على المضمون » . هذا الشكل الأساسي هو « تخليص الشعب اليهودي للأرض » ، أما المضامين الروحية أو الفكرية المختلفة فقد تختلف بشكل جذري ، ولكن هذا لا يهم « لأن مضمون الحياة نفسه سيصبح قوميا عندما تصبح أشكالها قومية » (٢٠٤) . بمعنى أنه اذا كانت بنية الفكر تدور حول مطلق الأمة والكيان القومي فان أي محتوى فكري آخر سيكتسب حتما بعدا قوميا .

ولكن يبدو أن كلاتزكين لم يتنبه الى أن هذه البنية القومية الصهيونية هي أساسا بنية أسطورية دينية ولذلك فهو كان يتصور أن الاتجاه نحو العلمانية في الحركة القومية اليهودية هو الذي سيسود في نهاية الأمر ، وأن شخصية النبي الدينية التقليدية وأخلاقياته (٢٠٥) هي شخصية ولا شك في طريقها الى الزوال . والأمر الذي لم يتبينه كلاتزكين أو الصهاينة الليبراليون والاشتراكيون هو أن الفكر القومي اليهودي رغم علمانية محتواه الظاهرة فان بنيته تجسد محتوى غيبيا واضحا (خاصة وأن التراث اليهودي لا يفرق بين ما هو قومي وما هو مقدس) ، وأن علمانية الصهيونية

---

(١) لطفي العابد وموسى عنز (ترجمة) ، اشراف الدكتور أنيس صايغ ، تعريف الدكتور أسعد رزوق ، **الفكرة الصهيونية : النصوص الاساسية** (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ١٩٧٠) . لتقليل عدد الهوامش سنشير الى أرقام الصفحات في النص نفسه . أحب أن أشير هنا الى أنني اضطررت في بعض الاحيان الى تغيير الترجمة حتى تتفق مع الاصل ، والى تعديلها بشكل طفيف أحيانا أخرى حتى تتفق لغويا مع سياق الدراسة ، والى تأكيد بعض الكلمات . والاصل الذي ترجمت منه هذه النصوص هو كتاب آرثر هرتزبرج ، **الفكرة الصهيونية: تحليل تاريخي ومختارات** (نيويورك : هاربز آندرو ١٩٥٩) . في مجال التعريف بالمفكرين الصهيونيين محل الدراسة استعنت بهرتزبرج وبتراجم الدكتور رزوق.

لم تكن الا مضمونا فكريا لا يؤثر فى البنية الأسطورية . وهذه حقيقة تبينها الصهاينة المتدينون والروحيون وحدهم ، ولذلك فقد دخلوا فى تحالفات مع الصهاينة العلمانيين مطمئنين الى أن الغلبة ستكون لهم فى نهاية الأمر . وقد بين مسار التاريخ اليهودى فى العصر الحديث أن توقعاتهم كانت فى محلها وأنهم لم يخنهم التوفيق .

وجوهر هذه البنية القومية الأسطورية هو الأحادية ، فنحن نجد فى الفكر الصهيونى ــ تماما كما هو الحال فى الأساطير اليهودية ــ أن الجزء يذوب فى الكل ، والتفاصيل العديدة المحسوسة والنسبية تذوب فى المطلق ، والتاريخ المتنوع المتعرج يصبح تعبيرا عن فكرة واحدة ، تماما مثلما كان يتحرك الشعب المختار فى المطلقات الأحادية (ومن هنا كانت دائرية الفكر الصهيونى ــ التى سنوضحها فيما بعد ــ ومن هنا كان جدله الزائف ، وكل جدل زائف يأخذ شكل دائرة منغلقة على نفسها ، على عكس الجدل الحقيقى الناتج عن التفاعل مع واقع محسوس ، الذى يمكن القول أنه يأخذ شكل حركة حلزونية متقدمة للأمام) .

ولكن لم ندرس مثل هذه الأفكار الأسطورية المجردة ؟ أو ليس من الأفضل أن ندرس الواقع الاسرائيلى المعاصر ؟ ان دراسة الواقع الاسرائيلى مسألة هامة ولا غنى لنا عنها ، ولكننا يجب أن نضع فى الاعتبار أن ما يحدد سلوك الأفراد ليس « وضعهم الاقتصادى » المجرد والمباشر ، وانما الأفكار والرؤى المحسوسة والأساطير التى يفرزها هذا الواقع ثم تسيطر هى عليه بعد حين . والدور الذى تلعبه الأفكار فى تحديد سلوك الانسان هو ما يفسر أن أفراد نفس الطبقة قد يسلكون سلوكا ثوريا أو ليبراليا أو فاشيا ، بل ان الفاشية هى أكبر دليل فى عصرنا الحديث على الدور الذى تلعبه الأفكار التى يفرزها الواقع فى فصل الجماهير وجدانيا عن وضعها الاقتصادى وتعبئتها وتسييرها لتحقيق أهداف ليس لها سوى علاقة واهية بواقعها الموضوعى ، بل ان هذه الجماهير ضحية الوعى الزائف لتسير أحيانا من أجل مثل ورؤى معادية لمصلحتها هى نفسها .

ودولة اسرائيل تطفو على سيل جارف من المساعدات المالية التى تأتيها من يهود الدياسبورا (الشتات) ومن الدول الامبريالية ، وهى مساعدات تجعلها « متحررة » من أى واقع اقتصادى محدد ، ولذا

يفشل الاسرائيليون — كمجموعة بشرية — فى الانسلاخ عن بنية الفكر الصهيونى وفى تحديد وعيهم الاقتصادى والتاريخى ، وينمو بالتالى وعيهم الزائف ويضمر وعيهم الحقيقى بالواقع الموضوعى .

والامبريالية العالمية لا تنظر لاسرائيل باعتبارها استثمار تجارى عادى (وان كان لا مانع من ذلك ان سنحت الفرصة) ، وانما تراها على أنها استثمار سياسى بالدرجة الأولى ، ولذلك تضحى الامبريالية أحيانا بالعائد المادى المباشر فى سبيل الهدف الاستراتيجى النهائى : خلق جماعة استيطانية فى منطقة الشرق الأوسط وجودها رهين بوجود الاستعمار ، تقوم بدور العميل النشيط المدافع عن مصالح الاستعمار. وانفصال المواطن الاسرائيلى النسبى عن أى واقع اقتصادى محدد يجعله محاربا نشطا مثل الجندى النازى الذى كان يتقدم الى غايته دون أى تساؤل أو تردد ، فالأسطورة المجردة تعزل الانسان عن الواقع بل وعن مصالحه وذاته . ان الاسرائيليين كشعب يلعبون نفس الدور الذى لعبته أقلية الأيبو فى نيجيريا وشعب القوقاز فى روسيا القيصرية ، فهى أقليات كانت تتمتع بوضع ممتاز نسبيا نظير أدائها لبعض الخدمات التى تطلبها منها السلطة التى منحتها هـذه الامتيازات سواء كان الاستعمار الانجليزى أم القيصر الروسى أم الامبريالية الأمريكية .

وقد ساعد العرب أنفسهم على استمرار هذا الوضع بفشلهم النسبى حتى الآن فى الحاق أى نوع من الهزيمة باسرائيل ، فالمواطن الاسرائيلى مثل المواطن النازى ضحية الوعى الزائف ، وعلينا أن نتذكر أن النازيين لم يستيقظوا من أحلامهم الا بعد ان ارتطمت هذه الأحلام بالواقع الموضوعى . كما أن العرب بالغائهم حتى عهد قريب الوجود الفلسطينى أو بوضعه تحت الوصاية الجبرية خلقوا لاسرائيل الفراغ اللاتاريخى الذى مكنها من التنفس والتحرك بحرية وطلاقة . فضلاً عن أن ما يبديه العرب من مظاهر الرفض الكامل لكل قطاعات المجتمع الاسرائيلى بما فى ذلك القطاعات المعادية للصهيونية من شأنه أن يطمس معالم التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع الاسرائيلى ، ويزيد من هيمنة وسيطرة الوعى الزائف .

ان دراسة بنية الفكر الصهيونى ، لكل ما تقدم من أسباب ، مسألة بالغة الحيوية لأنها ستساعدنا على تفهم عقل عدونا وعلى التنبؤ بسلوكه ، وعلى اختيار انجح الوسائل لمجابهته .

الجذور التاريخية لبنية الصهيونية

١ ــ الهسكلاه (حركة الاستنارة اليهودية)

على الرغم من أن الصهيونية بنية أسطورية مجردة الا أنها ــ كما أشرنا من قبل ــ لم تنشأ فى اللامكان ، وانما نتجت عن تفاعل عوامل اقتصادية وتاريخية مختلفة أدت فى نهاية الأمر الى افشال مختلف الحركات العقلانية بين اليهود ، بما فى ذلك حركة الاستنارة اليهودية أو الهسكلاه . ولفهم بنية الصهيونية ذاتها لابد وأن نحاول دراسة هذه العوامل والظروف .

يطلق اصطلاح الاستنارة على هذا التيار الفلسفى الذى ســـاد أوروبا فى أواخر القرن السابع عشر ، وأوائل القرن الثامن عشر ، والذى نادى بسيادة العقل فى كل مجالات النشاط الانسانى . وقد نادت حركة الاستنارة بأن العقل وحده ، الذى لا يقبل الا البديهيات الواضحة ، يجب أن يكون مرشد الانسان وهاديه ، فكل المعرفة الانسانية هى نتاج الادراك الحسى ، وما الحقيقة سوى مفاهيم نجردها من جماع ادراكاتنا الحسية المختلفة بعد أن يقوم العقل بتقييمها وتمحيصها . وقد شكل تصور لوك للعقل الانسانى ، على أنه صفحة بيضاء تسجل كل ما ينطبع عليها من أحاسيس ، الأساس الفلسفى لهذا الموقف العقلانى (وقد أثر لوك والفلسفة الليبرالية الانجليزية والتجريبيون الروس على دعاة الاستنارة بين اليهود) . وآمن العقلانيون أو المستنيرون بأن العالم تتحكم فيه قوانين وعلاقات يمكن لعقل الانسان تفهمها والتحكم فيها ، ونادوا بأن الانسان

ليس مخلوقا صوفيا عجيب الأطوار غير خاضع للتقنين والتقييم وانما هو كائن يتأثر بالبيئة الاجتماعية والحضارية التى يعيش فيها وانه عن طريق اصلاح هذه البيئة يمكن للانسان أن يحقق قسطا أكيدا من السعادة . وهم لايمانهم بأن عقل الانسان صفحة بيضاء ، آمنوا بالمساواة بين كل الأفراد والشعوب بغض النظر عن دينهم أو عنصرهم . ونادى المستنيرون بأن يعيش الانسان حسب ما يمليه عليه عقله وبأن يدير ظهره للخرافات .

تأثر اليهود والفكر اليهودى تأثرا عميقا بحركة الاستنارةالأوروبية، ولقد كان لليهود بالفعل حركتهم العقلانية الاستنارية وهى تسمى « بالهسكلاه » . وكلمة « هسكلاه » كلمة عبرية تعنى « فهم » ، ولكنها فى العصر الحديث تشير الى الحركة الفكرية اليهودية التى بدأت فى القرن التاسع عشر والتى نادت بأن يترك اليهود عزلتهم ليخلقوا قيما أخلاقية جديدة تحل محل قيمهم العتيقة البالية ، كما دعت الى تحكيم العقل فى كل ما يمت بصلة للتراث اليهودى ، فالايمان بالعقل يعنى رفض الحجج الغيبية ، ويعنى أيضا أن يصبح الاقتناع المنطقى عند كل فرد هو الحكم الوحيد على معتقداته وقيمه . ونادى دعاة الهسكلاه بادخال التعليم العلمانى فى المدارس اليهودية، بل طالبوا أن يرسل اليهود أولادهم لمدارس الجوييم حتى يتقنوا كل الفنون العلمانية مثل الهندسة والزراعة والبناء . وقد زعزع هذا من كيان السلطة الدينية التى كانت تتحكم فى اليهود مبقية أياهم رازحين تحت نير الظلمات والغيبيات .

وكما بينا من قبل نادت حركة الاستنارة بأن الطبيعة الانسانية فى جوهرها عقلانية ، وأن بنى البشر ، بغض النظر عن مللهم ونحلهم ، يمتلكون نفس المقدرات العقلية ، ولذا لم يكن من الغريب أن ينادى المسكيليم (دعاة الهسكلاه) بأنه من الممكن ، بل من الواجب ، أن ينفض اليهودى عن نفسه قشرته القومية المتخلفة التى تحجب وتطمس جوهره الانسانى ، وأن يندمج مع بقية شعوب الأرض حتى يكون ولاؤه الأول والاخير لبلده التى ينتمى اليها ، وليس الى قوميته الدينية التى لا تستند الى أى سند عقلى موضوعى ، ففى تصور المسكيليم كان على اليهودى أن يصبح يهوديا فى منزله ، انسانا عاديا فى العالم الخارجى . أى أن المسكيليم فصلوا الدين

اليهودى عما يسمى بالقومية اليهودية ، وأنكروا أن لمثل هذه القومية أى وجود .

وذهب المسكيليم الى أبعد الحدود فى رفضهم للشخصية اليهودية التقليدية المتخلفة : فى خضوعها وفى طفيليتها وفى غرقها فى طقوس دينية لا علاقة لها بالمكان أو الزمان اللذين يعيش فيهما اليهود ، بل انه يمكن القول أن المسكيليم اتفقوا الى حـد ما مع المعادين للسامية فى موقفهم من اليهود التقليديين .

ويبدو أن الهسكلاه قد هزت المجتمع اليهودى فى الجتو (أحيـاء اليهود فى أوروبا) من جذوره ، فنمط الحياة اليهودى فى العصور الوسطى ، وهو النمط الوحيد الذى ألفه يهود الجتو ، كان ضربا من الحياة المتكاملة التى لا ينقصها من عناصر الحياة الاجتماعية شىء ، وحيث أنهم وجدوا فى هذه الحياة الطمأنينة الداخلية الكاملة ، فقد تركز اهتمامهم على البقاء فى حالة عزلة كما يقول ماكس نوردو Max Nordau (١٨٤٩ — ١٩٢٣) الزعيم الصهيونى الألمـانى (١٣٣) .

قضت الاستنارة على هذا النمط من الحياة ، واصـبح لليهود « بيوت جديدة » فلم يعودوا بحاجة الى عزلتهم . « أصبح لديهم الآن معارف جدد ، فهم غير مجبرين على العيش مع اخوانهم فى الدين » (١٣٤) . قبل ظهور الاستنارة والهسكلاه كان اليهودى يعرف مكانه ووظيفته : أن يعيش فى الجتو على هامش التاريخ أو حتى خارجه ، شاهدا على الأمم وضحية عنفها . وقد تقبلت معظم المجتمعات الأوروبية فى العصور الوسطى اليهودى على أنه شخصية هامشـية ، ولكن بعد الاستنارة والهسـكلاه برؤيتهمـا العقلانية العلمانية بات من المستحيل تقبل هذا الوضع ، خاصة وأن الدول القوميـة بدأت تطلب من رعاياها التخلى عن ولاءاتهم الطائفية أو العنصرية (التى تسـود فى المجتمعات الاقطاعيـة) والانصهار فى البوتقة القومية الجديدة ، أو كما قال أحد دعاة الثورة الفرنسية فى ديسمبر ١٧٨٩ : « اننا نرفض أن نمنح اليهود كأمة أى شىء ، أما اليهود كأفراد فاننا نمنحهم كل شىء » ، ولذا كان على اليهود اعادة تقييم رؤيتهم ، كما كان على اليهودى أن يعيد صياغة نفسه ليواكب الروح العصرية التى اخترقت جدران الجتو .

ولعل هذا هو السبب الذى دعا المسكيليم الى توجيه سهام نقدهم الى الجوهر الأسطورى الذى يدور حوله التراث اليهودى ، فقبل ظهور الهسكلاه كان اليهودى على يقين كامل انه رغم انحطاطه المادى ورغم كل الظروف التى تحيط به فهو أكثر سموا من الجوييم فى الأمور الروحية لأن الله اصطفاه دون العالمين . بل ان الفكر اليهودى الدينى ليذهب أبعد من ذلك ويؤكد أن اضطهاد اليهود عبر التاريخ هو احدى علامات هذا الاصطفاء . وقد أسهمت أسطورة « الشعب المختار » فى تعميق عزلة اليهود عن الأمم التى يعيشون بين ظهرانيها ، كما أسهمت فى تأكيد الفوارق بينهم وبين « الأجناس » الأخرى ، فالأسطورة تجرد اليهودى من انسانيته ومن كيانه الزمنى المحسوس لأنها تعليه على ما هو انسانى وتاريخى ، ولذا حاول المسكيليم أن يبينوا زيف هذه الأسطورة ليستعيدوا لليهودى انسانيته المهرقة .

وحاول المسكيليم كذلك تناسى أسطورة العودة ، أو على الأقل تحويلها الى مفهوم روحى أخلاقى . فأسطورة العودة ، مثل أسطورة الشعب المختار ، أسطورة لا عقلانية تعزل اليهودى عن الآخرين بأن تربطه بمكان آخر فى آسيا ، ولهذا حاول دعاة الهسكلاه أن يحولوا فكرة جبل صهيون الى مفهوم روحى أو الى اسم للمدينة الفاضلة التى لا وجود لها الا كفكرة فى قلب الانسان المثالى ، واصبح الخلاص هو انتشار العقل والعدالة بين الشعوب غير اليهودية ، وليس بالضرورة مرهون بالعودة الى أرض الميعاد . وهذا الخلاص بمعناه الجديد سينتج عنه حتما انتهاء آلام « المنفى » (١) .

ويعد موسى مندلسون (٢) Moses Mendelssohn (١٧٢٩ — ١٧٨٦) الفيلسوف اليهودى الألمانى ، فيلسوف الهسكلاه

---

(١) من مصادر هذا الفصل كتاب بن هالبرن ، **فكرة الدولة اليهودية** (كامبريدج، ماساتشوستس : هارفارد يونفرستى برس ١٩٦١) ٣ — ٩٠ .

(٢) ايزودور ابشتاين ، **اليهودية : تقديم تاريخى** (بالتيمور : بنجوين بوكس ١٩٥٩) ٢٨٧ — ٢٨٨ وكذلك سولومون جرايزيل ، **تاريخ اليهود من النفى البابلى الى الوقت الحاضر ٥٧٢٨ — ١٩٦٨** (نيويورك : نيو أمريكان لايبرارى ١٩٦٨) ٤٦٨ — ٤٧١ .

بالدرجة الأولى الذى حاول أن يحطم « الجتو العقلى الداخلى » الذى أنشأه اليهود حول أنفسهم لموازنة الجتو الخارجي الذى كانوا يعيشون فيه . وقد بذل اقصى جهده لتبيان علاقة الدين بالعقل ، ورفض أن يعترف بأى جانب من اليهودية يتنافى مع العقل ، بل أنه ذهب الى حد الايمان بأن اليهودية ليست « دينا » مرسلا من عند الله بل هى مجموعة من القوانين الأخلاقية المنزلة ، وأنه عنـــدما تحدث الله مع موسى فى سيناء لم يذكر له أي عقائد ، بل ذكر طريقة للسلوك يتبعها الأفراد فى حياتهم الشخصية . وقد انتقد مندلسون سيطرة الحاخامات على الديانة اليهودية واليهود وبين فى كتابه **اورشليم أو انعتاق اليهود المدنى** (١٨٧٣) أن هناك أسسا ثلاثة لليهودية : **أولا** وجود الله ، **ثانيا** الايمان بالعناية الالهية ، **ثالثا** خلود الروح . وقد تقبل مندلســـون هذه القيم لأنها حقائق بديهية مثل الحقائق الرياضية ، كما أنها تشكل الأساس الفلسفى لكل الأديان قاطبة . وحاول مندلسون أن يعيـــد تعليم اخوانه فى الدين حتى يمكنهم الاندماج مع بقية الشعوب ، فقام بترجمة « أسفار موسى الخمســـة » الى الألمـــانية ليقضى على عزلة اليهود الموضـــوعية والنفسية وكتب تعليقا مستنيرا على الكتاب المقدس ، وأصدر مجلة لنشر كل ثمار الثقافة العالمية بالعبرية ، وأخيرا أنشأ مدرسة فى برلين للأطفال اليهود لتعليمهم الألمـــانية وبعض الأعمال اليدوية الى جانب العلوم اليهودية التقليدية . وحاول مندلسون أن يضمن استمرار حركة الهسكلاه ، فطالب بمنح كل فرد حرية العقيدة ليقرر كل ما يشاء حسب ما يمليه عليه ضميره وتصوره الأخلاقى ، أى انه كان يحاول أن يجعل من اليهودى فردا له حريته ووعيه وليس مجرد وحدة فى مجموعة قومية دينية تسلبه حريته وانسانيته .

وقد تركت فلسفة مندلسون أثرا عميقا على الفكر اليهودى ، بل ويمكن اعتبار مذهب اليهودية الاصلاحية ثمرة مباشرة للهسكلاه عامة ولفكر مندلسون على وجه الخصوص ، فقد حاول مؤسسو هذا المذهب أن يصلوا الى صيغة معاصرة لليهودية تلائم العصر وتتخلص من اسار المطلقات اللاتاريخية التى كانت تدور فى فلكها . وتتضح هذه النظرة التاريخية فى موقف المفكر الاصلاحى صمويل هولد هايم Samuel Holdheim (١٨٠٦ — ١٨٨٠) من التلمود اذ يقول : « يتكلم التلمود بأيديولوجيا العصر الذى جمع فيه،

فصلاحيته قاصرة على ذلك العصر . أما أنا فأتكلم من وجهة نظر الأيديولوجيا العليا لهذا العصر ، لذلك فأنا محق ولى الصلاحية لعصرى » (١) . ويمكننا القول ان أحد التيارات الأساسية فى الفكر الاصلاحى هو وضع المعتقدات الدينية اليهودية فى اطار تاريخى ومحاولة التمييز بين ما هو مقدس أزلى وما هو دنيوى زائل . ففكرة الوحى والنبوة التى تسيطر على الوجدان اليهودى عدلت ، ورأى الاصلاحيون أن الوحى ليس خالصا صافيا بل يختلط بعناصر تاريخية زمنية ، وبذا يصبح اليهود ملزمين بمحاولة فهم وتفسير هذا الوحى من آونة لأخرى وأن ينفذوا منه ما هو ممكن فى لحظتهم التاريخية . وعلى هذا يصبح القانون الالهى له « السلطة والحق فقط طالما كانت أوضاع الحياة التى جاء لمعالجتها مستمرة ، وعندما تتغير الأوضاع يجب أن ينسخ القانون حتى وان كان الله صاحبه ومشرعه » (٢) . بل أن هذا التيار التاريخى ليصل منتهاه فى قرارات مؤتمر بتسبرج الاصلاحى (١٨٨٥) الذى تقرر فيه « أن الكتاب المقدس ليس من صنع الله ، بل هو وثيقة من صنع الانسان »(٣) ، أى أنه نتاج وعى الانسان التاريخى وليس مطلقا خالصا ينوء الانسان بحمله . وكان هولدهايم يعتقد أيضا أن الدين أداة ابتدعها الانسان من أجل تطوير المجتمع البشرى ، وهو — كأى أداة أخرى — لابد وأن يواكب التطور وأن يعدل من آونة لأخرى . وتقاليد اليهودية ولاهوتها كانا ملائمين للماضى ، ولكنهما الآن قد فقدا صلتهما بالواقع ولابد من تطويرهما . أن عقل الانسان هو الذى يجب أن يحكم وليست الطقوس والتقاليد الدينية الساكنة (٤) .

وهذا التيار العقلانى التاريخى(٥) النسبى هو فى الواقع تعبير عن رغبة اليهودى فى تقبل حدوده التاريخية المحسوسة، وهى رغبة عبرت عن نفسها بشكل آخر فى الفكر الاصلاحى ، أعنى محاولة استبعاد

---

(١) اسماعيل راجى الفاروقى ، **الملل المعاصرة فى الدين اليهودى** (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨) ٥٢ .

(٢) نفس الصفحة .

(٣) نفس المرجع ٩٠ .

(٤) **تاريخ اليهود** ٥٠٥ .

(٥) أنظر « ٤ — حلول الله فى التاريخ » لاستيضاح المقصود من مصطلح « التاريخ » ومشتقاته فى هذه الدراسة .

العناصر القومية الموجودة فى الدين اليهودى والتى تؤكد انعزال اليهود عن الأمم الأخرى . ولا تزال هذه العقلانية النسبية التى تحاول تقييم التراث فى ضوء المعطى التاريخى وترفض الانعزالية القومية هى السمة الأساسية للتيارات الليبرالية والثورية فى الفكر اليهودى .

وفى ضوء هذه المنطلقات العقلانية للفكر الاصلاحى اليهودى يمكننا أن ننظر للتعديلات التى أدخلها زعماء الحركة الاصلاحية مثل ابراهام جايجر Abraham Geiger (١٨٣٠ — ١٨٧٤) ، أكبر مفكرى الحركة ، ودافيد فرايدلندر David Freidlander (١٧٥٦ — ١٨٣٤) على العبادة اليهودية وعلى بعض المفاهيم الدينية .

قام الاصلاحيون بالغاء الصلوات التى لها طابع قومى يهودى ، وجعلوا لغة الصلاة هى الألمانية لا العبرية ، وأدخلوا الموسيقى والأناشيد الجماعية ، كما سمحوا باختلاط الجنسين فى الصلوات ، وقد قام بعض الاصلاحيين ببناء بيت للعبادة أطلقوا عليه اسم « الهيكل » وكانت تلك أول مرة يستخدم فيها هذا الاسم لأنه كان لا يطلق الا على « الهيكل » الموجود فى القدس ، أى أن الاصلاحيين بتسميتهم كنيسهم هذه التسمية الجديدة كانوا يحاولون تعميق ولاء اليهودى للوطن الذى يعيش فيه (١) . وعلى المستوى الفكرى ، أعاد الاصلاحيون تفسير اليهودية على أساس عقلى ، وأعادوا دراسة الكتاب المقدس على أسس علمية ، ونادوا بأن الدين اليهودى ، أو العقيدة الموسوية ، وهى التسمية الأثيرة لديهم ، يستند الى قيم أخلاقية تشابه قيم الأديان الاخرى ، كما ركز الاصلاحيون على الجوهر الأخلاقى للتلمود مهملين التحريمات المختلفة التى ينص عليها القانون اليهودى خاصة القوانين الخاصة بالطعام (٢) .

وعدل الاصلاحيون بعض الأفكار الرئيسية فى الديانة اليهودية فنادى ابراهام جايجر « بحذف جميع الاشارات الى خصوصية الشعب اليهودى من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه وأدبه » (٣) ،

---

(١) **اليهودية : تقديم تاريخى ٢٩١ — ٢٩٤ .**

(٢) نفس الصفحات .

(٣) **الملل المعاصرة ٥٢ .**

اى أنه طالب بالتخلى عن فكرة الشعب المختار كلية . وقد حاول بعض الاصلاحيين الابقاء على هذه الفكرة مع اعطائها دلالة أخلاقية جديدة ، فجعلوا الشعب اليهودى شعبا مختارا يحمل رسالته الأخلاقية لينشرها فى العالم أجمع ويمكن لمن يشاء أن يؤمن بها . (هذا على طرف النقيض من الفكرة اليهودية التقليدية التى ترى أن الاختيار لا سبب ولا محتوى أخلاقى له ، بل هى مسألة صوفية يحفها الغموض أو فعل ربانى لا يمكن للبشر — بما فى ذلك اليهود أنفسهم — ادراك كنهه) .

وعدل الاصلاحيون ايضا من فكرة العودة والمسيح المخلص الذى سيأتى فى آخر الأيام ليعود باليهود الى أرض الميعاد وليبدأ العصر المسيحانى ، ويحكم العالم ألف عام يسود فيها السلام والعدالة . حاول الاصلاحيون أن يضفوا طابعا أكثر انسانية وأقل قومية على هذه الأساطير الدينية ، فرفض ممثلوهم (فى مؤتمر بتسبرج) فكرة العودة الشخصية للمسيح المخلص ، وأحلوا محلها فكرة العصر المسيحانى ... عصر يحل فيه السلام والكمال . هذا العصر سيأتى من خلال التقدم العلمى والحضارى ، وسيؤدى الى خلاص كل الجنس البشرى ، والى انتشار العمران والصلاح فى كل بقاع الأرض بالتدريج . ان الله حسب هذه الرؤية يفصح عن نفسه بالتدريج من خلال التطور التاريخى البطىء ، وليس بغتة وبدون سوابق أو انذارات أو شواهد . أن الأسطورة تحولت الى رؤية يمكن تحقيقها بالتدريج داخل التاريخ ومن خلال ارادة الانسان الواعية ، كما أنها أصبحت رؤية شاملة ليست قاصرة على اليهود وحدهم بل تضم كل البشر .والاصلاحيون بتجريدهمهذه الأسطورة من قبليتها وعنصريتها ومن أبعادها اللاتاريخية قد جعلوا من اليسير على اليهودى الاندماج فىالشعوب التىيعيش بينها ، وهو الأمر الذى أدىالى ضمور أسطورة العودة التى تثقل على وجدانه وتجعله دائم التطلع الى أفكار ومثاليات مجردة لا علاقة لها بواقعه المعاش (١) .

ونفس القول ينطبق على فهم الاصلاحيين لأسطورة الشتات ،

---

(١) تاريخ اليهود ٥٤٣ .

فالشتات — حسب الفهم التقليدى — هو عقاب لليهود على خرقهم الميثاق مع ربهم الا أنه من المفهوم أنهم سيعودون الى أرض الميعاد فى العصر المسيحانى يقودهم مسيح ملك من نسل داوود ، وفى رواية أخرى تقليدية أن الشتات — شأنه فى ذلك شأن العودة والاصطفاء — لا سبب له ولا مبرر . أما الاصلاحيون فيؤكدون أن اليهود انما شردوا ليحققوا رسالتهم **بين البشر** ، أى أن الشتات هو **وسيلة لتقريبهم** من الآخرين وليس لعزلهم عنهم (١) .

ويصل البرنامج الاصلاحى بتقدميته وتاريخيته وانسانيته الذروة فى المبدأ الخامس الذى أعلنه مؤتمر بتسبورج : « نحن نرى فى العصر الحديث ، عصر حضارة العقل والقلب الجامعة ، اقترابا لتحقيق أمل اسرائيل [المسيحانى] العظيم لأجل اقامة مملكة الحقيقة والعدالة والسلام بين جميع البشر . نحن لا نعتبر أنفسنا أمة بعد اليوم ، بل جماعة دينية ، ولذا فنحن لا نتوقع عودة الى فلسطين ، أو عبادة قربانية فى ظل أبناء هارون ، ولا استرجاعا لأى من القوانين المتعلقة بالدولة اليهودية » (٢) .

وتأثر الفكر اليهودى الاصلاحى بالفكر المسيحى واضح . فالفكر الدينى المسيحى يرى أن العهد الجديد قد أحل شكلا جديداً من الميثاق بين الرب والانسانية يتجاوز تخصيص العهد القديم لهذا الميثاق ، كما أن العهد الجديد يرى أن المسيح هو مخلص للبشر أجمعين وأن هذا الخلاص سيأخذ صورة مجتمع السلام المسيحى العالمى . أى أن الأفكار المسيحية الانسانية ساعدت الاصلاحيين على تخليص التراث اليهودى من قبليته ومن لا تاريخيته . فاليهودية الاصلاحية تمكنت من طرح هذه الرؤى الانسانية الرحبة لأنها تمكنت من أن تنفتح على التراث الانسانى بدلا من أن تدور داخل التراث اليهودى التقليدى (وهذا الانفتاح هو مـا سترفضه اليهودية الأرثوذكسية واليهودية المحافظة والصهيونية كما سنبين فيما بعد) .

---

(١) **الملل المعاصرة** ٥٩ .

(٢) أسعد رزوق ، **الدولة والدين فى اسرائيل** (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ١٩٦٨) ٢٣ .

وكما نري خلقت حركة الاستنارة الأوروبية ، ثم حركة الهسكلاه واليهودية الاصلاحية من بعدها ، مناخا حضاريا مناسبا للغاية جعل من الممكن لليهود فيه الانعتاق والاندماج مع الشعوب الأخرى . ورغم كل ادعاءات الصهيونيــة ، قامت معظم دول أوروبا باعطاء اليهود حقوقهم المدنية والسياسية ، وحقق اليهود قدرا كبيرا من الانعتاق والتحرر داخل الدول التى يعيشون فيها . ونورد فيما يلى بعض التواريخ الهامة الخاصة بمنح اليهود حقوقهم مع ملاحظة أن كل هذه القوانين والاعلانات الدستورية والتصرفات قد صدرت فى أقل من مائة وخمسين عاما ، وهى فترة قصيرة للغاية ، حتى لو نظر اليها من وجهة نظر الفرد اليهودى ، وليس من وجهة نظر التاريخ اليهودى أو الانسانى :

١٧٨٧ دستور الولايات المتحدة يعلن أنه « لن يطالب أى مواطن يبحث عن عمل ... أن يدخل امتحانا دينيا » .

١٧٨٩ اعلان حقوق الانسان والمواطن فى فرنســا ، « يولــد الناس ويبقون أحرارا متساوين فى الحقوق » .

١٧٩١ المجلس الوطنى الفرنسى يمنح اليهود الجنسية الفرنسية .

١٧٩٧ الغاء الجتو فى ايطاليــا .

١٨١٢ فريد ريك وليم الثــانى ملك بروســيا يعلن أن اليهــود مواطنون بروسيون .

١٨٣٩ اعلان المساواة فى الحقوق فى كندا .

١٨٤٨ المجلس الوطنى الألمــانى فى فرانكفورت يعلن أن « ولاء الانسان الدينى لن يقرر أو يحــدد حقوقه الوطنيــة أو الســياسية » .

١٨٦٧ اجراء تعديلات دستورية فى النمسا والمجر لاعطاء اليهود حقوقهم .

١٨٧٠ سقوط روما فى أيدى القوات الاتحادية التى تقرر على الفور منح الحقوق السياسية لكل اليهود فى ايطاليا .

١٨٧١	الدستور الامبراطورى الألمانى يلغى كل القواعد والقوانين المبنية على الفروق الدينية .
١٨٧٤	الدستور السويسرى يمنح الحرية الدينية للجميع .
١٨٨٧	معاهدة برلين تلغى كل القوانين التى تحد من حرية اليهود فى رومانيا وبلغاريا .
١٩١٧	سقوط القيصرية فى روسيا والغاء « كل الامتيازات والقيود الدينية والقومية » .
١٩٣٦	دستور الاتحاد السوفييتى يعلن أن « المنـــاداة بالعزلة أو الكراهية العنصرية أو القومية جريمة يعـــاقب عليهـــا القانون »(١) .

٢ ــ فشل الهسكلاه وهزيمة العقل اليهودى

وهكذا نرى أن اليهودى قد أصبح يتمتع بحقوق وبحريات لم يكن يحلم بها منذ سنين قليلة وحقق قسطا كبيرا من الانعتاق السياسى والروحى . ولكن لم يقدر لهذه الحركة أن تؤتى أكلها كاملة (لأسباب عديدة سنوردها فيما بعد) ، بل ان كثيرا من اليهود اعتقدوا أن التوصل لصيغة معاصرة وعقلانية لليهودية يعنى القضاء عليها قضاء مبرما ، وأن من الأفضل أن تستمر اليهودية فى الدوران داخل دائرتها المغلقة ، ولذلك نشأت فى صفوف اليهود حركات دينية وسياسية رجعية تقف ضد التيار الاصلاحى والاستنارى وتطرح حلولا وتصورات جديدة لمشكلة الوجود اليهودى فى العصر الحديث .

ومن أهم المذاهب الدينية الرجعية فى العصر الحديث مذهب اليهودية الأرثوذكســية التى تزعمهــا الحاخــام سمسون رفائيل هرش Samson Raphael Hirsch (١٨٠٨ ــ ١٨٨٨) . انتقد هرش اليهودية الاصلاحية لأنها « تأخذ نقطة ارتكازها خارج اليهودية فى

---

(١) معظم هذه التواريخ منقول عن دائرة المعارف الامريكية طبعة عام ١٩٦٦.

مبادىء مستعارة من غير اليهود تطبقهــا على غاية الانســان وحريته » (١) . ثم ينطلق هرش من نقطة ميتافيزيقية لا تقبل المناقشة وهي أن الله أوحى لموسى بالتوراة فوق جبل سيناء ، وهذه بالنسبة له حقيقة لا يمكن مناقشتها أو الجدل فيها ، وهي مقولة ثابتــة ذات معنى عميق وثابت يلغى أي معنى آخر يختلف عنها (على عكس موقف كوفمان كوهلر Kaufman Kohler [١٨٤٣ — ١٩٢٦] الاصــلاحى الذى يرى أن الوحى ليس نقطــة ثابتــة بل هى شيء مستمر) (٢) . ان التوراة هىكلام الله،كتبها حرفا حرفا ، قيمهاخالدة ازلية تنطبق على كل العصور ، ولولا التوراة لما تحقق وجود اسرائيل كشعب ، وعلى الشعب اليهودى اتباع هذا الكتاب المقدس الى أن يأتيه وحى جديد . ولأن عقل الانسان الضعيف لا يمكنه أن يخلق من الحكمة ما يفوق حكمة الله ، نادى هرش بعدم التغيير أو التبديل أو التطوير . (والطريقــة التى طرح بها هرش القضــية تنم عن تمسك بالحرفية الجافة ، فالوحى الالهى لم يلغ العقل الانسانى أو الارادة البشرية ، بل ترك مجالا كبيرا للانسان يتحرك فيه بحرية).

كان من المنطقى لهرش بعد انطلاقه من نقطة البدء الثابتة هذه أن يتقبل هو وأتبــاعه من الأرثوذكس المقولات اليهودية التقليــدية والأساطير القديمةبكلبساطتها ومجافاتها لحقائق التاريخ والواقع. فالدين اليهودى حسب تصوره لم يكن مجرد عقيدة يؤمن بها اليهودى كفرد ، بل هى نظام دينى يفسر تاريخ اليهود ويغطى كل جوانب الحيــاة اليهودية . كما آمن الأرثوذكس ايمانا حرفيــا بالأســاطير اليهودية مثل الاعتقــاد فى العودة الشخصية للمخلص وبالعودة لفلسطين وبأن اسرائيل هو شعب الله المختار الذى يجب أن يعيش منعزلا عن الناس لتحقيق رسالته .

ومن المذاهب اليهودية الأخرى التى وقفت ضد التيار الاصلاحى مذهب اليهودية المحافظة التى تزعمها زكريا فرانكل Zechariah Frankel (١٨٠١ — ١٨٧٥) ..نادى فرانكل (مثله فى ذلك مثل هرش والصهاينة) بأن أى تغيير أو تطوير لليهودية لابد

(١) الملل المعــاصرة ٧٧ .

(٢) آرثر هرتزبرج ، اليهودية ١٩ .

وأن يكون نابعاً من أعماق الروح اليهودية لا من خارجها (١) .وعلى الرغم من أن فرانكل والمحـــافظين كانوا من المؤمنين بأن التوراة الشفهية خرافة ابتدعها الربابنة لكي يضفوا لونا من الحقانية على ما أقره الاجماع الشعبي (٢) ، وعلى الرغم من أنهم رأوا أيضا أن التراث الديني اليهودي ليس مرسلا من الله،الا أنهم لم يتخذوا موقفا نقديا أو متحررا من التوراة أو التراث اليهودي لأن كليهما تعبير عن روح الشعب اليهودي وعبقريته . ولذلك يؤمن المحافظون بالقانون اليهودي دائم التطور ، ولكن هذا التطور لابد وأن يكون متسقا مع منطق اليهودية نفسها ، وأن تظل الأشكال المختلفة المتغيرة تعبيرا عن عبقريتها . وقد اقترح المحافظون ، وبالذات سلومون شختر Solomon Schechter ، الحاخام الصهيوني ، (١٨٤٧ ــ ١٩١٥) ، أنه بدلا من ترك الأمور كلية فى أيدى قلة من رجال الدين ، يقررون ويفسرون القـــانون ، يجب أن يقوم « متــكلمون يمثلون الشعب اليهودى وينطقون باسم الجماعة » (٣) ، وبالتالى أصبحت عبارة « كلال اسرائيل » أو « اسرائيل المجمعة على هويتها » هى جوهر موقف اليهودية المحافظة ، وتحاول هذه الجمــاعة من المتكلمين اكتشاف روح اليهودية بدراسة التراث والتقاليد والأدب اليهودى . ويؤمن المحافظون بأن الأمل فى العودة فكرة أثيرة لدى اليهود لابد من المحافظة عليها ، وبأن هذا الأمل لا يتنافى بأى حال مع الولاء للوطن الذى يعيش فيه اليهودى ، ويرى المحافظون أن تكون الصلوات اليهودية بالعبرية (وان كانوا لم يمانعوا فى أن تتلى باللغة المحلية ان لزم الأمر) .

والفروق بين اليهودية المحافظة واليهودية الأرثوذكسية طفيفة وغير جوهرية ، فكلاهما يضفى هالة من القداسة على حياة اليهود وتاريخهم ، وهى قداسة يرجعها الأرثوذكس لأصول ربانية ويرجعها المحافظون لأصول قومية . كما أن الأرثوذكس والمحافظين يؤمنون بالعلاقة الوثيقة التى تربط الله بالشعب بالأرض بالتوراة ، وبأن هذه

---

(١) المثال المعـاصرة ٩٦ .
(٢) نفس المرجع ٩٥ .
(٣) نفس المرجــع ١٧ .

العناصر تكون كلا لا تنفصم عراه . وفى حين أن الأرثونكس يؤكدون أهميـــة الله والوحى ، نجد أن المحافظين يبرزون أهميـــة الشعب وتاريخه . ولعله من المفيد أن نذكر أن المذهب المسيطر على الحياة الدينية فى اسرائيل هو اليهودية الأرثونكسية (١) . ولكننا على الرغم من ذلك نرى أن الفكر الصهيونى يشبه فى كثير من الوجوه الفكر اليهودى المحافظ ، فبينما يؤكد الأرثونكس الأصول السماوية للتراث اليهودى يحاول المحافظون تغليفه واضفاء مسحة من العلمانيـــة الحضارية عليه ، وبينما يلغى الارثونكس التاريخ كلية نجد أن المحافظين يحاولون أن يضفوا غلالـــة من التاريخية على تفكيرهم القومى ، وبينما يصر الارثونكس على مقولة أن الدين اليهودى هو القومية اليهودية وأن القومية هى الدين ، يحاول المحافظون تمويه هذه الحقيقة والتخفيف من حدتها بعض الشىء بالحديث عن روح الشعب المقدسة وبجعلها هى مصدر القداسة بدلا من الله . ان اليهودية المحافظة هى اليهودية التقليدية بعد أن ارتدت زيا علمانيا ، وهذا هو جوهر الصهونية . وقد اضطرت اليهودية المحافظة والصهيونية الى ارتداء هذا الزى العلمانى والى استغلال أساليب الهسكلاه لينجحا فى أحباط مثلها وافشال محاولتها سلخ اليهودى عن انتمائه القومى الاسطورى .

ولعل التقابل الواضح بين اليهودية المحافظة والصهيونية يظهر فى موقف زكريا فرانكل وبن جوريون من التراث اليهودى ، ففرانكل يرى أن الدين اليهودى هو التعبير الدينى عن روح الأمة اليهودية ، وهو بمثابة اجماعها الشعبى العام ، ولذا يجب الا تثار مســألة ما اذا كان القانون من أصل سماوى أو أرضى ، فطالمـــا أن القانون يعبر عن هذا الاجماع الشعبى العام فانه يجب أن يبقى ســارى المفعول (٢) . هذا الموقف يشبه فى كثير من الوجوه موقف بن جوريون من أسطورة الوعد الذى قطعه الله على نفسه بمنح اليهود أرض كنعان ، فبالنسبة لبن جوريون لا يهم أن كانت هذه الواقعة حقيقية

---

(١) نفس المرجع ٨٧ .
(٢) نفس المرجع ٩٤ .

الهية أم لا ، بل المهم هو أن هذه الأسطورة مغروسة فى الوجدان اليهودى ، ولذا يجب أن تبقى سارية المفعول حتى بعد أن يثبت أن الوعد المقطوع هو مجرد أسطورة شعبية ليس لها أى مصـــدر الهى .

وتنتمى الحركة الصهيونية الى حركة الردة هذه التى رأت أن العقل اليهودى غير قادر على التكيف مع الواقع التاريخى الجديد ، وأن على اليهود البقاء داخل مقدساتهم القومية . وفكرة فشـــل الهسكلاه فكرة تتكرر فى معظم الكتابات الصهيونية ، **بل أن حياة** الزعماء الصهاينة أنفسهم تبين أن الارتداد عن الاستنارة لم يكن موقفا فكريا وحسب بل حقيقة عاطفية وشخصية أيضا .

ولنأخذ ــ على سبيل المثال ــ حياة ليوبنسكر Leo Pinsker (١٨٢١ ــ ١٨٩١) الطبيب الروسى والزعيم الصهيونى . قضى بنسكر معظم حياته داعيــا للاندمـــاج وللتخلى عن اليهودية المتخلفة ، ولكنه فى أواخر حياته غير موقفه وأصبح من مؤسسى الصهيونية ومن دعاة الانعزال القومى . ونفس الظاهرة اتسمت بهـــا حياة ثيودور هرتزل Theodore Hertzl (١٨٦٠ ــ ١٩٠٤) المؤسس الحقيقى للصهيونية كحركة سياسية ، فهرتزل بدأ حياته الفكرية اندماجيا وانتهى قوميا صهيونيا . وقد وصف بيرتز سمولنسكين Perecz Smolenskin (١٨٤٢ ــ ١٨٨٥) الروائى الروسى اليهودى هذا الجانب من حياة الصهاينة فى كتابه المسمى **المتجول فى سبل الحياة** . والكتاب يعد سيرة ذاتية روائية يسرد فيها الكاتب « مغامرات انسان يتيم راح يطوف عبر مختلف نواحى الحياة اليهودية المعاصرة فى أوروبه ، ثم انتهى طوافة الى الموت فى الدفاع عن شعبه خلال مذبحة روسية »(٤٣) ، **اى انه حاول** أن يخرج الى الحياة الحرة العلمانية ، ولكن محاولته باءت بالفشل ، فعاد الى الجتو ليموت بين بنى جلدته ، أبناء شعب الله المختار .. انه يموت ميتة الشهداء مثله مثل الملايين الآخرين .

ويمكن أن نضرب عشرات الأمثلة الأخرى التى تعضد وجهـــة نظرنا ، ولكن من الأفضل أن نطرح سير المفكرين الصهاينة جانبا وأن ننظر الى كتاباتهم ذاتها . يقول بنسكر فى كتابه **الانعتاق الذاتى**:

« يجب ألا نقتنع أنفسنا بأن الانسانية وحركة التنوير سيكونان أبدا دواء جوهريا لشفاء شعبنا من مرضه » (٩٦) . أما سمولنسكين فكان من المؤمنين بأن الهسكلاه « نظرية غريبة شاذة » وأن المسكيليم كانوا أناسا غير حكماء لم يعرفوا الماضى ولا المستقبل ، وهم لا يستوعبون معنى الحاضر » (٥٣) ، لأنهم يطالبون اليهود بتقليد « الجوييم الاغيار » (٥٤) . ان التنوير ، حسب تصوره ، هو الرفض الأعمى للماضى اليهودى ، وهو أيضا محاولة القضاء على كل « روابط المحبة والتضامن مع الجماعة » (٥٥) التى تربط الفرد اليهودى ببنى ملته ، وما الهسكلاه الا محاولة تؤدى باليهود فى نهاية الأمر الى خداع النفس « بآمال كاذبة » ، والى الحديث عن « السلام فى حين أنه ليس هناك أى سلام » (٥٦) . والصورة التى يقدمها سمولنسكين صورة كاريكاتورية تنم عن عدم تفهم لطبيعة الهسكلاه الاصلاحية التدريجية . وفى نهاية مقاله الذى اقتبسنا منه يقول سمولنسكين : « كذلك أكدوا لنا بأننا بهذا (التنوير) سنستطيع تأسيس بيوت لنا حيثما تصادف وجودنا ونادوا بأنه يجب علينا أن نتخلى عن كل بارقة أمل فى العودة الى أرضنا والعيش هناك بعزة مثل سائر الشعوب ، ولقد رأينا أن كل هذا لم يثمر شيئا ولم يحقق لنا الحب الذى نطلبه ، لذلك نقول : ان الكلب وحده هو الذى لايملك ولا يريد أن يمتلك بيتا ، والانسان المتنقل طيلة حياته والذى لا يفكر أبدا فى أن يؤسس بيتا لابنائه سيعتبر كالكلب » (٥٧) . أما ماكس نوردو فهو من المؤمنين بأن الهسكلاه نوع من النفاق لان اليهودى ينفق طاقته فى اخفاء شخصيته الحقيقية ، وهو يخاف أن يعرف الناس أنه يهودى من خلال شخصيته ، « فهو أبدا محروم من الكشف عن حقيقة نفسه » خوفا من أن تعرف شخصيته الأصلية ، « لذلك شلت قواه من الداخل فأصبح مرائيا من الخارج ، كأى شىء غير حقيقى ، مضحك وكريه فى نظر كل الناس ذوى المقاييس العليا» (١٣٥) . ويرى ميكا جوزيف بيرديشفسكى Micah Joseph Berdiczevsky (١٨٦٥ — ١٩٢١) الروائى الروسى الصيهونى أن المسكيليم «رجال وجهين فهم نصف غربيين فى حياتهم اليومية وأفكارهم ، ونصف يهود فى كنسهم » (١٨٣) .

ونفس النغمة تتردد فى كتابات وحياة موسى هس Moses Hess

(١٨١٢ — ١٨٧٥) المفكر الاجتماعى الألمـــانى ، وواضع الأساس الفلسفى للصهيونية . بدأ هس حياته اشتراكيا ثوريا وصديقـــا شخصيا لكارل ماركس ، وفى كتاباته الأولى نجده ينحو منحى عقلانيا متطرفا ، فهو يعلن فى مذكراته أن « الدين اليهودى والشرع الموسوى قد ماتا » (١٩) ، ولكنه فى **روما والقدس** (١٨٦٢) يعلن توبته عن ثوريته وعقلانيته الانسانية قائلا : « عدت الى شعبى بعد عشرين سنة من الاغتراب ، وهأنذا أشارك شعبى مرة أخرى فى أعياد أفراحه وفى أيام أتراحه ، فى آماله وذكرياته » (٢١) . واذا كان مندلسون هو فيلسوف الهسكلاه ، فان هس هو فيلسوف النكسة الفلسفية التى صـــدرت عنهـــا الصهيونية ، فالاشراقة الانسانية التى تطالعنا فى كتابات مندلسون ، والرغبة الصـــادقة فى الانتماء للجنس البشرى وللتطور التاريخى المحسوس يختفيان كلية فى كتابات هس ، وبدلا من ذلك نجد نفس الاصرار القدرى القديم على أنه لا مفر من العزلة أو من دخول دائرة الوجود اليهودى . واذا كان سمولنسكين قد سمى المستنيرين المندمجين بالكلاب ، واعتبرهم نوردو منافقين ، فأن هس هو الآخر أسهم فى عملية السب هذه حين يقول : «أما اليهودى عديم الشرف ،فهوليس ذلك النموذج القديم التقى الذى يفضل قطع لسانه على أن يتفوه بكلمة ينكر فيها قوميته ، انما هو اليهودي العصرى ... الذى يخجل من قوميته لأن يد القدر تضغط بقســـوة على شـــعبه » (٢٤) . أن منطلق هس — كما نرى — هو افتراض أن حركة الهسكلاه قد وصلت الى نهاية المطاف ، وهو لهذا السبب هاجم اليهود الاصلاحيين لتخليهم عن قوميتهم ، وأيد اليهود الأرثونكس لتأكيدهم العنصر القومى . وهو يرى أن لكل جنس بشرى معناه الروحى ومهمته فى تاريخ العالم ، ومهمة اليهود فى العالم هى تحقيق العدالة الاجتماعية فى جمـــاعة انسانية منظمة متحدة ، ولكن حيث انه لا يمكن لليهود انجاز مهمتهم التاريخية الا كأمة ينبغى عليهم أن يحصلوا على قطعة أرض تكون وطنا لهم ، وعليهم العودة الى أرض الميعاد . وهكذا نجد أن رؤية هس « التاريخية » تماثل الى حد كبير الرؤية اليهودية التقليدية ، وهو لهذا قد أشار بكثير من الاستحسان الى كتابات الحاخام زفى هيرش كاليشر Zevi Hirsch Kalischer (١٧٩٥ — ١٨٧٤) الذى اقترح تأسيس جماعة لشراء الأراضى ولمساعدة اليهود فى العـــالم على الاستيطان فى فلسطين (١٤ — ١٧) . أن كل ملامح التفكــير

الصهيوني وتناقضاته موجودة فى كتابات هس : الايمان بالأمة التى لها دور روحى خاص ، والهروب من العقل ومن التاريخ المحسوس الى عالم تسيطر عليه الأساطير والمطلقات المنغلقة على ذاتها .

والآن يحق لنا أن نتساءل : لماذا هذا الاحساس الغامر بفشل الهسكلاه ؟ ولماذا هذا الابتعاد عن العقلانية الانسانية ؟ مما لا مراء فيه أنه كانت هناك أسباب موضوعية جعلت من العسير ترجمة مثل الهسكلاه الى حقيقة أو واقع تاريخى ، ونحن نورد فيما يلى بعض هذه الأسباب :

١ — كان الاندماجيون والمسكيليم عادة من الارستقراطيين أو البورجوازيين الذين كان الاندماج لا يضيرهم اقتصاديا ، اذ أن خبراتهم كانت من النوع المطلوب اقتصاديا ، فالأطباء والمهندسون — على سبيل المثال — يمتلكون من الخبرات مالا يمكن لأى مجتمع — مهما كانت ميوله الدينية أو الأيديولوجية — الاستغناء عنه . ولكن أغلبية الجماهير اليهودية كانت تنتمى الى طبقة البورجوازية الصغيرة وتقف على هامش العملية الانتاجية فى المجتمع حيث تشتغل بالأعمال الكتابية وبأعمال الربا والسمسرة . ان الاندماج بالنسبة لهذه الجماهير كان يعنى الهبوط فى السلم الاجتماعى ، فالمجتمع ككل لم يكن له كبير حاجة لهم ولذا فالحياة داخل أسوار الجتو لم تكن سيئة لهذا الحد بالنسبة لهم . وهذه الجماهير البورجوازية الصغيرة هى التى اعتمدت عليها الصهيونية وكل الحركات « القومية » اليهودية الأخرى ، وهى الجماهير التى تحمست لانشاء أكبر جتو فى العالم : الدولة اليهودية .

٢ — رغم أن حركة انعتاق اليهود وما نشأ عنها من استعادة للحريات المسلوبة واسترداد للحقوق الضائعة كانت قد بدأت فى التحقق التدريجى ، الا أنها — شأنها شأن أى حركة تاريخية أخرى — لم تأخذ شكلا مستقيما ، بل كانت هناك نكسات متعددة مثل مذابح عام ١٨٨١ التى أعقبت اغتيال القيصر نيقولاى الثانى ، قيصر روسيا .

٣ — ومما ساعد على الانتكاس الفكرى فى صفوف اليهود ظهور القوميات الرجعية ، فالقوميات التى ظهرت فى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة نشأت نتيجة لتطور تاريخى طبيعى ، وقامت البورجوازية — ذات المثل الليبرالية — بقيادة الثورة ضد الاقطاع .

أما القوميات السلافية والألمانية فالأمر مختلف بالنسبة لها ، فهي قوميات نشأت في مجتمعات متخلفة أوتوقراطية ولم تكن البورجوازية هي الطبقة الوحيدة القائدة ، بل انه في بعض الأحيان كانت الأسر المالكة ، متحالفة مع طبقات الاقطاعيين وكبار الملاك ، تجد أن من صالحها تأييد الحركات القومية . ونتيجة لعدم التحدد الطبقي في القيادة نجد أن معظم هذه القوميات رومانسي في رؤيته يرتكز الى أساس ميتافيزيقي أسطوري ويطرح شعارات غائمة مثل « روح الشعب » ورسالة الأمة الخالدة . ومن سخرية الأقدار أن تكون هذه هي مزاعم اليهود بالنسبة لأنفسهم كأمة ، ولذا نظرت هذه القوميات الرجعية لليهودي على أنه ليس الغريب فحسب ، بل والغريم والمنافس الذي يجب القضاء عليه (ولعل هذا يفسر بشاعة اضطهاد النازيين لليهود) .

٤ — نشأت الصهيونية أساسا في روسيا وفي شرق أوروبا ، وهي بلاد لم تضرب الاستنارة فيها جذورا حقيقية . وقد آثر الصهاينة تجاهل وضع اليهود الذين يعيشون في البلاد التي تسود فيها الليبرالية لأن هذا لم يخدم غرضهم ، وقد قال حاييم وايزمان Chaim Weizmann (١٨٧٤ — ١٩٥٢) الزعيم الصهيوني وأول رئيس لجمهورية اسرائيل : « ان الغرب بالنسبة للصهيونية كان ينتهي عند نهر الراين ، وخلف هذه الحدود كانت توجد أرض مجهولة » (١) . ولا تزال هذه الأرض حتى يومنا هذا أرضا مجهولة بالنسبة للصهاينة ، فالاستنارة لم تحدث ، والاندماج أن هو الا سراب على الرغم من أنه هو الحقيقة الأساسية في حياة اليهود في انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة . ولذا كان هتلر بنازيته اللاعقلانية هو خير معين للصهاينة لأنه أثبت لهم أن اللاعقل قد انتصر وأن بلدا مستنيرا نسبيا مثل المانيا يمكن أن ينتكس في أي لحظة ليلقي باليهود في أفران الغاز .

٥ — بل اننا نجد أن يهود القوميات الليبرالية المندمجين (في أمريكا وانجلترا وفرنسا) رغم عقلانية وضعهم الاجتماعي وانسانيته قد وقعوا في قبضة الفكر الصهيوني المتخلف لأسباب عدة :

---

(١) موشى مينوهين ، **تدهور اليهودية في العصر الحديث** (بيروت : معهد الدراسات الفلسطينية ١٩٦٩) ٣١ .

(أ) أدى تعاطف يهود القوميات الليبرالية مع يهود روسيا وشرق أوروبا ، خاصة بعد مذابح كيشينيف الشهيرة ، الى احساسهم الشديد بالذنب ، وقد ترجم هذا الاحساس نفسه الى رغبة فى مساعدة اليهود الشرقيين فى محنتهم ، وقدمت الصهيونية نفسها على أنها العلاج الوحيد والناجح لمشاكل اليهود .

(ب) ومما زاد من التفاف يهود الغرب حول المثل الصهيونية المتخلفة وصول جماعات كثيرة من يهود الشرق الى انجلترا وفرنسا وأمريكا ، اذ كانت هذه الجماعات « المتخلفة » من اليهود تذكر كلا من اليهود المندمجين واخوانهم من الجوييم بأصول اليهود المتخلفة وبالأساطير والطقوس العتيقة التى تدل على توزع ولاءاتهم . وكلما تم اندماج دفعة من المهاجرين كانت تصل دفعة أخرى مما كان يضطر اليهود ، المندمج منهم والقادم الجديد ، الى البدء من نقطة الصفر . ولذا كان الحل الصهيونى ، الذى يطالب بتحويل الهجرة الى أرض الميعاد فى آسيا بعيدا عن أوروبا ، هو الحل الأمثل بالنسبة للمندمجين . وقد تنبه هرتزل الى هذه الحقيقة فى كتابه **الدولة اليهودية** حيث يقول : « ان هذا الضيق المكبوت عند اليهود المندمجين يظهر على شكل أعمال خيرية ، فهم ينظمون جمعيات هجرة لليهود القادمين ... لقد تأسست بعض هذه الجمعيات ضد اليهود المضطهدين وليس من أجلهم فقد كان لسان حالهم يقول تخلصوا من المعوزين بأسرع ما يمكن ، وأرسلوهم الى أبعد مكان ممكن » (١٠٩) .

(جـ) استقطبت الحركات الثورية فى ألمانيا وروسيا وبولندا وغيرها من البلدان فى شرق أوروبا ، بل وفى غربها ، كثيرا من المثقفين اليهود الى درجة جعلت الوجود اليهودى فى هذه الحركات ملحوظا للجميع مما أزعج القيادات اليهودية المندمجة فى المجتمعات البورجوازية فى الغرب . ولهذا السبب كان من المنطقى أن تشجع هذه القيادات الحركة الصهيونية على امتصاص هؤلاء المثقفين وعلى تحويلهم عن الطريق الثورى الى طريق الصهيونية القومى الغيبى .

هذه هى بعض الأسباب التى أدت الى انتشار الصهيونية فى صفوف يهود الغرب ، ولكن يجب أن نلاحظ أن ايمان يهود الغرب

بالصهونية لم يكن ايمانا كاملا بل كان ايمانا عمليا جزئيا ، فهم كانوا من المؤمنين بأن الحل الصهيونى اللاعقلانى ملائم ليهود الشرق فحسب ، أما بالنسبة لهم فالحل المستنير العقلانى كان الحل الأمثل ، وهذه خلطة فكرية انتهازية من الدرجة الأولى تتسم بضرب لا نظير له من الشيزوفرانيا الفلسفية . ولعل هذا الجانب من الفكر الصهيونى فى الغرب هو الذى دفع أحدهم لتعريف الصهيونى الغربى بأنه يهودى يجمع التبرعات من يهودى آخر لارسال يهودى ثالث لأرض الميعاد .

يمكننا القول أن كل هذه الأسباب مجتمعة قد أسهمت دون شك فى اعاقة تحقيق مثل الاستنارة ، ولكن هناك أسبابا ذاتية خاصة بتوقعات اليهود والصهاينة من الهسكلاه وخاصة بتصورهم لأنفسهم ولدورهم فى التاريخ والمجتمع ، أى أنها أسباب تتعلق باليهود فى حد ذاتهم وليس بوضعهم الاجتماعى — هذه الأسباب أعاقت هى الأخرى محاولة ترجمة مثل الهسكلاه الى واقع وحقيقة :

١ — نعتقد أن هناك خطأ أساسيا فى طريقة طرح الصهانية للمشكلة اليهودية وفى طريقة تقييمهم للهسكلاه ، فقد بسطوا الحلول المطروحة للمشكلة اليهودية بشكل متطرف ، وقرروا أنه لم يكن أمام اليهود سوى بديلين : اما الذوبان الكامل عن طريق الاندماج أو الفناء الكامل عن طريق المذابح مما جعل الحل المنطقى الوحيد هو الهجرة « لبعث اسرائيل فى أرض أجدادها حيث تستطيع الأجيال القليلة القادمة أن تحيا حياة قومية عادية الى أقصى حد » (٧٨) على حد قول موشيه لايب ليلينبلوم Moshe Leib Lilienblum (١٨٤٣ — ١٩١٠) الداعية الصهيونى الروسى . ونحن من تجربتنا التاريخية نعرف أن كل هذه الاحتمالات مجرد تصورات نظرية ومجردة ، فاليهود الذين يعيشون فى عالم الجوييم لم يقدر لهم الذوبان الكامل ولم يكن مصيرهم الدمار الشامل ، كما أن الهجرة اليهودية (من شرق أوروبا) فى أواخر القرن التاسع عشر لم تتجه الى أرض الميعاد بل اتجهت الى أوروبا الغربية أو الى العالم الجديد . ولو راقب الصهاينة حركة الواقع المحسوس — كما فعل المؤرخ اليهودى سيمون دوبنوف Simon Dubnow (١٨٦٠ — ١٩٤١) — بدلا من الوقوع فى اسار التعميمات الغائمة لطرحوا حلولا للمشكلة اليهودية أكثر تقدمية وعقلانية من حلمهم الغيبى .

٢ — بدأ الصهاينة فى اعلان فشل الهسكلاه بعد مرور أعوام قليلة من ظهورها ، وهذا دليل آخر على تجريدية العقل الصهيونى ، فنحن عادة لا نستخدم مصطلحات مثل « النجاح » و « الفشل » حينما نشير الى الحركات الفكرية والظواهر الحضارية المختلفة ، فالأفكار تأخذ مئات السنين لتتحول الى واقع سياسى ، وفى خلال هذه الفترة تأخذ الفكرة ألف شكل وشكلا . فالواقع يغاير المثل والحقيقة السياسية لا يمكن أن تكون مطابقة للحقيقة الفكرية ، هذا الا اذا كنا نعيش داخل أنابيب الاختبار أو نخرج من معامل اتوماتيكية معقمة ، ولكنا — والحمد لله — لا زلنا نعيش فى عالم أكثر تركيبا . بل اننا اذا نظرنا الى واقع اليهودالتاريخى لوجدنا أن انعتاق اليهود فى أوروبا — شرقها وغربها — وفى العالم الجديد تم بسرعة «ونجاح» مذهلين ، اذا ماقيس بظواهر سياسية مماثلة مثل تحرر الزنوج فى أمريكا الشمالية ، ولكن الصهاينة لم يتبينوا هذا النجاح التاريخى النسبى لأنهم كانوا منشغلين بترقب نجاحهم والعودة الى أرض الميعاد والخلاص الأبدى والحياة الأزلية .

٣ — ويبدو أن الصهيونى — وهو وريث فكرة « الشعب المختار » — لا يحكم على نفسه بالطريقة التى يحكم بها على الآخرين ، فالعقل اليهودى منذ بداية التاريخ قسم العالم الى « أنا » و « الأغيار » ، اليهودى والجوييم ، وما يسرى على الواحد لا يسرى على الآخر وبالعكس ، ولذا فالقياس التاريخى السليم الذى يساعد المرء على تقبل الحدود التاريخية أو على رفضها بالشكل المعقول،يصبح عمليةصعبة للغاية — ان لمتكن مستحيلة بالنسبة للصهيونى . ولنأخذ موقف الصهاينة واليهود عامة من النازية : من المعروف للجميع أنالجيوشالنازية قد ألحقتالدماربىلادأوروبية عديدة ، وأن الاتحاد السوفيتى بمفرده قد فقد عشرات الملايين من الضحايا فى حربه ضد النازية وفقد أيضا معظم صناعاته . ولكن اليهود الصهاينة يتناسون هذه الحقيقة ليركزوا على ما لحق بهم هم وحدهم من دمار ، حتى نجحوا فى خلق انطباع عام لدى كل المثقفين فى العالم بل ولدى معظم الجماهير مؤداه أن النازية كانت تصب عليهم وحدهم حمم غضبها . ومما ساهم فى انجاح محاولتهم هذه ان العناصر اليهودية تلعب دورا كبيرا فى تسيير دفة وسائل الاعلام فى أوروبا ، ولكن الأهم من ذلك هو أن كل ضحايا النازية الآخرين

قد تغلبوا على جراحهم وعادوا الى عملية الخلق الحضارى ، أما الصهيـونى فلا يزال يتـأمل جرحـه معتقـدا أنـه استمرار للجرح القديم الذى لا يندمل . واذا نظرنا الى حالة اليهود كأقلية فى القرن التاسع عشر لوجدنا انهم كانوا أسعد حظا بكثير من غيرهم من الاقليات (مثل الأرمن مثلا الذين تحالف هرتزل مع السلطان التركى ضدهم) ، ولكن **الآخرين** لا علاقة لهم باليهودى . لقد اصطفاه الله دون العالمين ولذا فهو الضحية الوحيدة ، ولا يمكن أن يقاسمه أحد هذا الشرف .

٤ ـــ كانت الجماعات اليهودية فى أوروبا هى أكثر القطاعات الانسانية تخلفا ، اذ أن الجتو انغلق على نفسه مئات السنين محتفظا بصفاته التى اتسم بها فى العصور الوسطى . لقد مر عصر النهضة وعصر الاصلاح الدينى على أوروبا دون أن يتركا أى أثر على الجتو ، ولذا فحينما بدأت حركة الاستنارة كانت كل أوروبا معدة لها فى حين أن اليهود لم يكونوا معدين حضاريا أو نفسيا ، أو كما يقول نحمن سيركين Nahman Syrkin (١٨٦٧ ـــ ١٩٣٤) المفكر الصهيونى «الاشتراكى» : « ان اعلان حقوق الانسان قد حرر اليهود بشكل مفـاجىء من عبودية القرون الوسطى ومنحهم المساواة السياسية والمدنية بدون أى جهد من جانبهم ، لقد حقق اليهود تحررهم صدفة عن طريق انتصار مبدأ المساواة دون أن تكون لهم قوة ذاتية حقيقية تسندهم أو قوة منظمة فعالة تبدأ عملية انعتاقهم» (٢٢٠) .

كان على اليهودى أن يعيد صياغة ذاته ونفسيته بل والطريقة التى يرتدى بها ملابسه ويقص شعره ، كما أنه ، وهو الذى يدين بولاء غامض لتلك البلاد البعيدة التى لم يرها قط فى حياته ـــ أرض الميعاد ـــ كان عليه أن ينمى فى ذاته ولاء محددا للبلد الذى يعيش فيه ، وهذا أمر لم يكن هينا على كثير من اليهود .

٥ ـــ كان من صالح بعض القيادات الاجتماعية والدينية داخل الجتو ذاته أن تظل العزلة مضروبة على اليهود ، حفـاظا على الجماهير اليهودية كأيد عاملة رخيصة يستغلها المستثمرون اليهود تحت شعار الرابطة الدينية .

٦ ــ نتيجة لهذا الوضع وقعت غالبية الجماهير اليهودية فى شرق أوروبا فى قبضة التيارات الدينية المتخلفة (الأرثوذكسية والمحافظة ومن بعدها الصهيونية) وهى تيارات قدمت رؤية منغلقة وقبليــة للحياة اليهودية مستندة الى فهم ضيق للتراث الدينى اليهودى .

لا غرو أن كثيرا من اليهود اعتقدوا أن حركة الهسكلاه كانت تعنى التخلى الكامل عن اليهودية، لأن اليهودية ــ حسب تصورهم ــ كانت غير قابلة للتطوير ، وفى هذا يقول أحاد هعام Ahad Ha'am (١٨٥٦ ــ ١٩٢٧) مؤسس مدرســة الصهيونيــة الروحيــة : « ان اليهــودية اذ تخــرج من أســوار الجتــو الانعزاليــة تتعرض الى خسارة كيانها الأصلى ، أو على الأقل وحدتها القومية وتصبح مهددة بالانقسام الى أكثر من نوع واحد من اليهودية » (١٥٩). ولعل هذا هو السبب فى أن « المسكيليم وجدوا أن من الأهون خلق قالب جديد لتابعى الهسكلاه من القيام باصلاح طريقة الحياة اليهودية مع الابقاء فى الوقت ذاته على الصفات اليهودية » (١٤٦) . ويكرر نوردو نفس الفكرة أو النغمة فى كتاباته اذ يقول : « كانت كل العادات وانماط السلوك اليهودية تهدف دون وعى الى شىء واحد ، الحفاظ على اليهودية ، وذلك بعدم الاختلاط بالجوييم من أجل الحفاظ على المجتمع اليهودى ، ولتستمر فى تذكير الفرد اليهودى بأنه سيضيع ويهلك ان هو تخلى عن شخصيته الفريدة . **وهذا الدافع نحو الانفصال عن الغير كان منبع كل قوانين الطقوس الدينية** التى كان يعتبرها اليهودى عادة بمرتبة ايمانه ذاته » (١٣٣) ، ولذا لم يكن من الغريب أن يحذر سمولنسكين اليهود من أى تجديد أو تطوير . ان اتباع الهسكلاه ــ حسب تصوره ــ فيه قطع « لكل جذور الحياة » بالنسبة لليهود (٥٤) ، وفيه تقويض لبيت اسرائيل كليا (٥٥) .

وقد بلور هس هذه الفكرة حين قال ان الدين اليهودى قد أصبح مصيبة أكثر منه دينا خلال الألفى عام الماضية ، ولكنها مصــيبة لا فكاك لليهودى منها ، فعليه أن « يتحمل نير مملكة السماء حتى النهـــاية » ، ويرى هس أن المســكيليم مخطئــون ان ظنوا « أن باستطاعتهم النجاة من هذه **المصيبة** بالتنور أو التنصر » (٣٩) . وهو فى مكان آخر يبين عبث محاولة تطوير الدين اليهودى فيقول :

« حاول المتنورون أن يعرضوا المسرح اليهودى الى ضوء الثقافة الحديثة وذلك بخرق القشرة الصلبة التى سلح الحاخامات اليهودية بها . لا يستطيع أحد حتى مندلسون العظيم أن يفعل هذا الشىء دون أن يخرب لب اليهودية الداخلى » (٢٦) . اذا كان اللب نفسه قبليا ومتخلفا وضيقا فان أى دعوة نحو العالمية والشمولية هى فى صميمها دعوة للقضاء على اليهودية . يقول هس : « ان الهسكلاه قد نادت بعدم الايمان بقوميتنا كأساس للدين اليهودى فليس غريبا اذن ألا تؤدى هذه الاصـــلاحات الا الى عدم الاكتراث باليهودية والتحول الى النصرانية » (٢٦) .

لقد توصل مفكرو الصهاينة الأول الى أنه لا يمكن فصل الدين عن القومية ، وبالتبعية لا يمكن ادخال المثل الليبرالية المستنيرة على اليهودية . ولقد كان الصهاينة محقين الى حد ما فى مخاوفهم ، فبعد أن جرد مندلسون الدين اليهودى من القيم القومية ، لم يتبق منه سوى قيم روحية عامة لا تختلف عن قيم أى دين آخر ، ولذا وجد الـــكثير من اتباع مندلسون أنه من المنطقى أن يعتنقوا الدين المســيحى . بل أن اليهودية الاصـــلاحية بدأت كمذهب بمحـــاولة الانضمام الى الكنيسة اللوثرية فى ألمانيا ، على شرط أن يقـــوم اللوثريون بادخال بعض التعديلات الطفيفة على الطقوس الكنسية (وبالطبع رفض هذا الطلب) .

ونحن نرى أن سيادة التيارات الرجعية بين الجماهير اليهودية وتوقعات اليهود والصهاينة غير المنطقية من حركة الهسكلاه هو ما أقنع أعدادا كبيرة من هذه الجماهير بأن التنوير قد فشل وأنه لابد من البحث عن البديل ، وقد قدمت الصهيونية نفسها على أنها هذا البديل ــ بمعنى أن الأسباب الذاتية الخاصة باليهود وبالمجتمع اليهودى أسهمت بشكل فعال فى تحديد مسار التاريخ اليهـــودى فى عصرنا الحديث .

ولكن الصهيونية قدر لها أن تلعب دورا خطيرا فى حياتنا العربية وفى السياسة العالمية لأن الدول الامبريالية ، خاصة انجلترا (ومن بعدها الولايات المتحدة) قد تبنتها ودعمتها . ولكن على الرغم من أن ظهور المصالح الامبريالية على مسرح الأحداث كان هو العنصر

الحاسم من الناحية السياسية ، بل وكان هو العنصر الذى أدى الى انتصار الصهيونية على ما عداها من الحركات الفكرية اليهودية الأخرى ، الا أنها لم تتدخل فى صياغة بنية الصهيونية بشكل جوهرى . فالصهيونية اكتسبت طابعها الفريد وشكلها المميز من الواقع اليهودى الذى نشأت فيه ، وبعد أن ظهرت كبنية متكاملة بدأت الدول الاستعمارية فى تبنيها ودعمها ، أى أننا لا يمكن أن ندرس الصهيونية كبنية متكاملة محددة المعالم وكظاهرة ذات شكل خاص بتحليل المصالح الامبريالية فى نهاية القرن الماضى . مثل هذا التحليل قد يفسر لنا نجاح المخطط الصهيونى أو انجذاب بعض قطاعات اليهود للصهيونية أو اهتمام الصحافة والمسئولين فى الغرب بأمور أخلاقية مثل « مصير اليهود » و « المشكلة اليهودية » ، ولكنه لن يفسر لنا أبدا **خصوصية** بنية الصهيونية . هذا لا يعنى البتة أننا يمكننا اغفال المصالح الامبريالية والعوامل الاقتصادية الأخرى من حسابنا ، فدراسة تاريخ الصهيونية كحركة سياسية ودراسة تاريخ اسرائيل وواقعها الاقتصادى والسياسى غير ممكن دون أخذ هذه المصالح والعوامل فى الاعتبار . ولكننا ونحن بصدد وصف بنية الصهيونية نجد أن الامبريالية لم تكن أحد المكونات الأساسية لها .

ولالقاء مزيد من الضوء على هذه الفكرة يمكن أن نضرب مثلا بجماعات المهاجرين القومية الفاشية الصغيرة (الأوكرانية واللاتفية واليوغوسلافية) المنتشرة فى أوروبا وأمريكا . هذه الجماعات لها أيديولوجيات وتصورات مثالية فاشية ذات طابع أسطورى ، فهى لا تزال تدور فى اطار الأفكار القومية البورجوازية التقليدية ، وهى بنيات فكرية قد تحددت وتشكلت ، وان كان لا يدرى بها أحد الا العلماء المتخصصون . ولكن قد يأتى اليوم الذى ترى فيه احدى الدول الامبريالية امكانية استخدام واحدة من هذه الجماعات ، وقد تتبناها وتشجعها ، وقد تدرب أعضاءها على حرب العصابات تمهيدا « لتحرير » احدى الدول الاشتراكية ، ولكن هذا لن يغير من بنية فكر هذه الجماعة فى شىء .

بنية الصهيونية

١ — لا عقلانية الصهيونية

على الرغم من أن الصهيونية هى الحركة الفكرية اليهودية التى حلت محل الهسكلاه الا أنها لم تكن وريثتها ، فالفكر الصهيونى ليس نتاج الفكر الاستنارى العقلانى الذى يؤمن بالدولة العلمانية المبنية على التنوع وعلى الصراع وعلى تقبل جميع المواطنين باختلاف مللهم ، وانما هو فكر غيبى لا عقلانى . وتموج الكتابات الصهيونية باشارات الى تفوق العاطفة على العقل ، واللاوعى على الوعى ، والمطلقات الصوفية على الظواهر التاريخية الانسانية .

يقول اليعازر بن يهودا **Eliezer Ben Yehudah** (١٨٥٨ — ١٩٢٣) أحد رواد النهضة العبرية الحديثة : « يتحرك قلب الانسان بالعاطفة وليس بالعقل . . . لأن قلب الانسان — حتى قلوب المسكيليم — هى قلوب رقيقة يمكن التغلب عليها بمثل هذه العاطفة » (٦٤) . أما موسى هس فيلسوف الردة الفكرية التى صدرت عنها الصهيونية فهو فى عودته لشعبه يعود لعاطفته : « لقد تبين لى أن العاطفة التى ظننت أنى قد كبتها عادت الى الحياة من جديد . . . تأججت هذه العاطفة نصف المخنوقة فى صدرى محاولة التعبير عن نفسها » (٢١) . وهو يحدد العاطفة بأنها عاطفة صوفية « انها التفكير فى قوميتى التى ترتبط برباط لا تنفصم عراه بتراث أسلافى وبالأرض المقدسة وبالمدينة الخالدة » وما الى ذلك من أشياء سرمدية ! وهو يعى لا عقلانية موقفه الجديد ، اذ يؤكد أن العودة هى عودة لمجرى التاريخ اليهودى « الذى أهمله

العقلانيون كثيرا » ، وأن استمداد « الالهام من منابع اليهودية الرئيسية » سيوقظ فى الأفئدة اليهودية الروح الوطنية التى تحلى بها الأنبياء والحاخامات «وفى هذا خير رادع للعقلانية الهدامة» (٢٩). وأسطورة العودة الى أرض الميعاد تفسر على انها عودة للارض التى يمكن لليهودى أن يطلق فيها العنان لخياله وعواطفه . يقول الحاخام ابراهام اسحاق كوك Abraham Isaac Kook (١٨٦٥ — ١٩٣٥) : «لا يستطيع اليهودى أن يكون مخلصا وصادقا فى أفكاره وعواطفه وخيالاته فى أرض الشتات كما يكون فى أرض اسرائيل . فالوحى المقدس ، بأى درجة كان ، يكون نقيا فقط فى أرض اسرائيل ، أما فى خارجها فانه يكون مشوشا ملوثا وغير نقى » (٢٩٥) . ويكتشف موشيه ليلينبلوم يهوديته حينما يتعذب : « انى لمسرور اذ تعذبت ، فأتيحت لى الفرصة على الأقل كى أشعر بما كان يشعر به أجدادى كل يوم فى حياتهم . كانت حياتهم كلها عبارة عن رعب طويل ، فلم اذن لا أمارس الشعور بذلك الخوف الذى ملأ حياتهم » (٦٩) . ان اكتشاف الخوف جعله يهجر المثل المستنيرة ليستخدم المصطلح الصوفى : « عندما تفتحت عينى على المثل الأعلى الجديد وارتفعت روحى لمستوى العمل الجديد الذى يكمن فيه خلاصنا الأبدى .. تركتنى المثل القديمة [المستنيرة] فى لمح البصر » (٧٠) .

ان الصهيونى يهرب من عالم العقل والتاريخ والواقع الى الأساطير والغيبيات القديمة ، ولكنه فى القرن التاسع عشر والعشرين فى أوروبا لم يكن فى مقدوره العودة الكاملة للتراث اليهودى القديم ، وهو تراث كان يعانى أزمة حضارية بسبب الظروف الجديدة فى أوروبا ، ولذا لجأ الى صيغة معاصرة للغيبية القديمة ألا وهى الفكر الصهيونى .

وهنا قد يحق للقارىء أن يتساءل عن تفسير لظاهرة سيطرة أفكار غيبية مثل الصهيونية على مجتمع صناعى متقدم يسخر العلم والتكنولوجيا لخدمته مثل المجتمع الاسرائيلى . وللرد على هذا التساؤل بشكل مباشر يمكننا أن نستشهد بحالات مماثلة فى التاريخ الحديث مثل مجتمع الأبارثيد أو التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا ، والمجتمع الألمانى تحت حكم النازى . فالأيديولوجية النازية الغيبية جندت الشعب الألمانى وحولت المجتمع بأسره الى ترسانة حربية

صناعية هائلة على جانب كبير من الكفاءة ، ثم تحركت الجيوش الألمانية بعد ذلك تدك البلاد الأوروبية الواحدة تلو الأخرى .

وعلى الرغم من كل هذه الاستشهادات الا أننا لا نزال فى حاجة الى تفسير ، ويمكننا القول ان الوعى الزائف يتحكم فى **رؤية المجتمع** ككل وفى رؤية الأفراد لدورهم كمجموعة بشرية ، ولكنه مع ذلك لا يتدخل فى سلوك الأفراد اليومى أو فى **طريقة** تعاملهم مع الواقع. كان ايخمان على سبيل المثال يسلك سلوكا متحضرا للغاية فى حياته الشخصية ، فقد كان حريصا كل الحرص على أن يحضر لزوجته زهورا فى عيد ميلادها ، كما كان يستمع بشغف شديد الى موسيقى فاجنر بينما كانت جثث اليهود تحترق فى الأفران على بعد خطوات من مكتبه . وهناك مثل أكثر درامية ودلالة ، أعنى عملية التخلص من يهود أوروبا ، فقد تم نقل ملايين اليهود من بلادهم الى ألمانيا بسرعة باهرة ، ثم فرزوا وقسموا الى مجموعات حسب أعمارهم وجنسهم ، ثم سيقوا بعد ذلك لأفران الغاز حيث تم ابادتهم ابادة كاملة دون أن يترك أى أثر . وقد أبقى النازيون « العادم الاقتصادى » عند الحد الأدنى ، فشعر اليهود قد صنع منه فرش جيدة للاحذية ، أما حشو أسنانهم فقد صهر وحول الى سبائك ذهبية استفاد منها الاقتصاد الوطنى الألمانى ! هذه العملية الناجحة (؟) تعد من أكثر العمليات التى عرفها الانسان الحديث دقة وتنظيما ، رغم أنها تهدف الى تحقيق مثل غيبية فاشـــية لا انسانية ، بل اننا يمكننـــا القول انه لا يمكن أن يقوم بمثل هذه العملية سوى مجتمع صناعى على جانب كبير من التقدم (؟) والفاشية مثل المجتمع الألمانى فى منتصف القرن العشرين .

ونفس الظاهرة يتسم بها المجتمع الاسرائيلى ، فهو مجتمع قد حدد أهدافه بطريقة أسطورية ، ولكن المواطن الاسرائيلى حينما يتعامل مع الواقع فانه يسلك سلوكا علميا دقيقا ، صارما فى دقته . ولنأخذ موشى ديان على سبيل المثال ، فهو حينما يتحدث عن **الفرض** من فتوحاته وغزواته فانه يستدل بالتوراة والتلمود والأقاصيص الشعبية . فالجولان لابد من ضمها لأن القضاة اليهود كانوا هناك ، وسيناء لابد من غزوها لأنها كانت جزءا من اسرائيل فى الماضى السحيق ، وحدود اسرائيل مسألة تقرر حسب رؤى

العهد القديم ، أى أنه حينما يحدد ديان **أهدافه بالمعنى العام** فانه يصدر عن رؤية غيبية غير علمية ، وعن مجموعة من الأساطير الدينية القومية التى لا سند لهـــا فى الواقع أو التاريخ . ولكن حينما يحرك ديان جيوشه فانه يتبع أحدث الاستراتيجيات العسكرية ويستخدم آخر المخترعات العلمية ، فالغيبية قاصرة على الرؤية ولا تنسحب على طريقة التعامل مع التفاصيل اليومية .

ومما ساعد على قيام هذا الوضع أن العناصر القيادية فى المجتمع الاسرائيلى والأقلية المسيطرة عليه هى نتاج أوروبا بتراثها العلمى العريق وبايمانها بالتجريب كوسيلة للمعرفة ، وهى باحتكاكها بهذا التراث وتمرسها الطويل فيه أصبحت واعية بفائدته قادرة على اســـتخدامه فى تحقيق أهدافها (أنظر أيضـــا : « ٦ ــ التجريبية الانتقائية ») .

٢ ــ الأمة المقدسة

يستند أى برنامج سياسى الى رؤية للانسان ونظرة للتاريخ ، فالبرنامج النازى كان يصدر عن فكرة تفوق العنصر الآرى وعن تصور محدد للتاريخ الألمانى وللتاريخ البشرى ككل . والبرنامج السياسى الصهيونى لا يشذ عن هذه القاعدة ، فالصهاينة يطرحون تصورا محددا للأمة اليهودية وللتاريخ اليهودى والانسانى . ومما له دلالته أن بيان « اعلان استقلال » اسرائيل ، رغم أنه دون شك بيان سياسى بالدرجة الأولى ، الا أنه يتضمن رؤية للتاريخ اليهودى وبعض التعميمات المتعلقة بالنفسية اليهودية . يقول البيان : « أن أرض اسرائيل هى المكان الذى ولد فيه الشعب اليهودى ، وهنا تشكلت ذاتية اليهود الروحية والدينية والقومية،وهنا حصلوا على استقلالهم وخلقوا حضارة لها فحوى قومى وعالمى ، وهنا كتبوا الكتاب المقدس وقدموه للعالم » . وبعد الحديث عن نشأة الأمة اليهودية يستطرد البيان ليتحدث عن حالة اليهود النفسية بعد التشتت : « حافظ الشعب اليهودى على ولائه لأرض اسرائيل بعد نفيه منها الى بلاد الشتات ، ولم يتوقف قط عن الصلاة والأمل فى العودة وفى استرجاع حريته القومية . هذا الارتباط بالأرض دفع اليهود الى الكفاح عبر القرون للعــودة الى أرض آبائهم

ليستعيدوا كيانهم كدولة مستقلة . وقد عادت [بالفعل] جماهير عديدة فى السنين الأخيرة » (١) .

ثمة تصور ما للتاريخ اليهودى وللنفس اليهودية اذن يستند اليه البرنامج السياسي الصهيونى ، واذا كانت دراسة مثل هـــذه التصورات مسألة هامة لفهم أى برنامج سياسى ، فان أهميتها تتضاعف اذا كنا بصدد دراسة الفكر الصهيونى لأن الصهيونية أعطت أهمية غير عادية للتاريخ والتراث اليهوديين ، كما أنها رأت وجود ارتباط واضح بين اليهودى كفرد وكعضو فى جماعة بشرية من جهة والتاريخ اليهودى من جهة أخرى . فدراسة رؤية الصهاينة للانسان اليهودى وفهمهم للتاريخ هو فى تقديرى خير السبل للاحاطة بالبرنامج السياسى الصهيونى وبنية الفكر الصهيونى ككل .

ولفهم الرؤية الصهيونيـــة للنفس البشرية (اليهودية وغـــير اليهودية) وللتاريخ اليهودى والانسانى لابد من العودة للتراث اليهودى القديم ولتصور اليهود لله ، فعلاقتنا بالله (المطلق) تلقى كثيرا من الضوء على علاقتنا بالتاريخ (النسبى المتغير) . ونحن اذا ما نظرنا الى العهد القديم لوجدنا اشارات عديدة الى الله على أنه كائن له خصائص انسانية وأنه ليس معصـــوما من الخطأ أو الغضب أو الخجل . فهو على سبيل المثال رجل حرب (**خروج** ١٥ : ٤) ، وهو يأمر اليهود بقتل النساء بل والأطفال والذكور (**عدد** ٣١ : ١ ـــ ٣) ، وهو رب قوى الذراع يأمر شعبه بألا يرحم أحدا (**تثنية** ٧ : ١٦ ـــ ١٩) . كما أن مقاييسه الأخلاقية تختلف حسب الزمان والمكان وحسب ما تمليه الاعتبارات العملية ، فهو يأمر الشعب المختار بضرب جميع الذكور بحد السيف فى المدن البعيدة عن أرض الميعاد ، أما سكان مدن أرض الميعاد ذاتها فمصيرهم الابادة ذكورا كانوا أم اناثا أم أطفـــالا ، وذلك لأسباب عملية معروفة .

---

(١) والتر لاكير (محرر) **قراءات فى الصراع العربى الاسرائيلى : تاريخ وثائقى لصراع الشرق الاوسط** (نيويورك : بانتام بوكس ١٩٦٩) ١٢٥ .

والتصور اليهودى لله فى مرحلة ما قبل النفى كان يجعل منه الها قوميا خاصا **بالشعب** اليهودى وحده بينما نجد أن للشعوب الأخرى آلهتها ، ففى **سفر الخروج** (١٥ : ١١) وفى الوصايا العشر (**خروج** ٢٠ : ٤) اشارات لآلهة أخرى .

وفى قصة راعوث (١ : ١٥) ثمة اشارة الى شعبها وآلهتها . ولذلك نجد أن هذا الاله اليهودى القومى يطلب من أفراد شعبه هو أن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم المصريين عن طريق الخطأ (**خروج** ١٢ : ١٣ — ١٤) ، أى أننا يمكننا القول أن اليهود القدامى كانوا يؤمنون باله واحد ولكنهم لم يكونوا قط من الموحدين بالله (١) .

والاله حسب التصور اليهودى لم يكن حقيقة مطلقة تعلو على المادة ، بل هو فى الواقع امتداد لما هو نسبى ، وحتى بعد أن تحول هذا الاله النسبى الى اله العالمين ، نجد أنه يظل بالدرجة الأولى اله اسرائيل على وجه الخصوص ، بل انه نظرا لعالميته تزداد أهمية شعبه . ومما لا مراء فيه أن رؤية اليهود القومية الخالصة هذه قد عدلت فيما بعد وأصبحت أقل قبلية وبدائية ، ولكن على الصعيد الوجدانى بقى الاله اليهودى امتدادا لوعى الأمة اليهودية بنفسها ، ولم يحل التصور النظرى الجديد محل التصورات القبلية ، خاصة وأن اليهود ، حتى بعد أن أصبحوا من الموحدين ، احتفظوا بتصورات بدائية قبلية عديدة مثل مفهوم الشعب المختار كما أن شعائر الدين اليهودى تحتوى على تيار قوى للغاية يضفى على تصور اليهودى للخالق ، رغم تحوراته وتبدلاته ، عنصرا قوميا محليا . والناقد الفاحص للفكر الصهيونى يلاحظ آثارا كثيرة لهذا الفهم الضيق لله ، فحاييم نحمن بياليك **Hayyim Nahman Bialik** (١٨٧٣ — ١٩٣٤) الشاعر الصهيونى ، الروسى الأصل ، يصف يوم الاحتفال بالجامعة العبرية بأنه « يوم عظيم ومقدس بالنسبة لالهنا وشعبنا » (١٧٣) . وطريقة بياليك فى الاشارة للخالق تذكر

---

(١) اسماعيل راجى الفاروقى ، **أصول الصهيونية فى الدين اليهودى** (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٤/٦٣) ١٠٠ .

الانسان بموقف اليهود القدامى الذين طالبوا أن تسمى كل أمة باسم الهها (٢٦٥) (وهى كلمات يقتبسها باستحسان كبير آرون دافيد غوردون Aaron David Gordon [١٨٥٦ — ١٩٢٢] الفيلسوف الصهيونى المتصوف) . ويؤكد مارتن بوبر Martin Buber (١٨٧٨ — ١٩٦٥) الفيلسوف الوجودى الصهيونى الألمانى الأصل هـذا الجانب من الاله اليهودى ، فهو اله يكن « حبا خاصا » لاسرائيل (وهذه عبارة يقتبسها بوبر من أقوال الأنبياء [١١١ : ١٨]) . كما أنه اعتبر اليهود « كنزه الخاص من بين جميع الشعوب » (وهذه عبارة أخرى اقتبسها بوبر من **سفر الخروج** [١٩ : ٥]) (٣٣٧) .

وليس الاله اليهودى وحده هو الاله القومى بل أن كل المقدسات اليهودية تأخذ الطابع القومى . فالتوراة ليست كتابا روحيا يقرؤه ويعى محتواه الأخلاقى من يشاء بل هو كتاب الشعب اليهودى وحده ، وأرض الميعاد هى الأرض التى سيجتمع فيها الشعب المختار . وقد عمقت فكرة أرض الميعاد من قومية الاله اليهودى ، فهو لم يعد الها قوميا مرتبطا بشعب وحسب بل جعلت منه الهـا مرتبطا بمكان أيضا . والمسيح المنتظر الذى سيأتى بالخلاص لكل البشر فى نهاية الزمـان هو الآخـر بطل قومى لأنه سيجمع اليهود المشتتين فى الأرض التى سكنوها ، كما أنه من نسل الأسرة المالكة اليهودية ، أسرة داود وسليمان .

ولكن اذا اكتسبت المقدسات طابعا قوميـا فلابد وأن تكتسب الظواهر القومية طابعا مقدسا ، وهذا هو ما حدث بالفعل ، فالتفكير اليهودى القديم والتفكير الصهيونى الحديث يشتركان فى الايمان بأن للشعب اليهودى بعض السمات الربانية المقدسة ، فالعبرانيون اكتسبوا اسمهم الدينى الجديد بعد أن صارع يعقوب الملاك فى حادثة غامضة لا يمكن فهم مدلولها مثل معظم الأساطير اليهودية الأخرى . وقد سمى يعقوب « باسرائيل » أى « بطل الله » بعد هذه الحادثة ، وأصـبح العبرانيـون « اسرائيليين » أى « أبطـال الله » ، وبذا أصبح الشعب امتدادا لله فى الأرض يخاطبه اليهود بكثير من عدم الكلفة : « لمـاذا تكون كانسان قد تحير كجبار لا يستطيع أن يخلص ، وأنت فى وسطنا يارب وقـد دعينا باسمك لا تتركنـا »

(**أرميا** ١٤ : ٩) . ان الله قد حل فى الأمة « وأصبحت اسرائيل مشبعة بروح الله ، بروح الاسم القدس » (٢٩٧) . وحلول هذه « المادة الالهية » فى الشعب هو ما يميزه عن غيره من الشعوب الأولى (٣٠٠) كما يقول الحاخام الصهيونى ابراهام اسحاق كوك.

وينتج عن حلول الله فى الأمة أن أفرادها يصبحون كهنة وقديسين وأنبيـــاء بل ومسحاء مخلصين (١) . فالشعب اليهودى يوصف فى العهد القديم بأنه « خادم الله » « وكنز الله الغالى » وهذه أوصاف تستخدم لوصف الأنبياء . كما أن الشعب مثل الأنبياء مدين بوجوده لله الذى قاده سالمـــا من أرض مصر وســـاعده على غزو أرض كنعان ، ولعل هذا يفسر ظاهرة تعدد الأنبياء اليهود وتغلب التيار النبوى فى الفكر الصهيونى . فبياليك يتحدث باعجـــاب ووله عن أنبياء اليهود الذين « يحملون عاصفة روح الله فى قلوبهم وزلازله ورعوده فى أفواههم » ، انهم يعيشون خارج الوجود الانسانى فقد حولوا « أنظارهم الى الأزلية ، الى السموات والأرض ،وكانوا فى نهاية المطاف هم الذين أقاموا أسس الثقافات الدينية والأخلاقية فى العالم » (١٧٩) .

وقد اصطفى الله الأمة المقدسة دون العالمين وأصبحت اسرائيل بذلك أداته التى يستخدمها لخلاص العالم والنور الذى أرسله للأمم (أشعيا ٤٩ : ٧) . « ان اليهود كشعب يحاول كشف طبيعة الله للعالم ورفع رأس الانسان عاليا باسم الله من أجل تمجيد عظمته » (٢٩٦) كما يقول الحاخام كوك ، وهذا ولا شك سيؤثر على جميع البشر . أما بوبر فهو يؤكد أن اسرائيل قد اختيرت « لتتمكن من الارتفاع فى تفكيرها ... عن القوة البيولوجية التى تمجدها الشعوب الى دائرة الحقيقة والاستقامة » (٣٣٨) . وينصح بوبر الأمـــة اليهودية بأنه لا سبيل لاعادة بناء اسرائيل وتحقيق أمنها الا عن طريق أن يتحمل الشعب « عبء وضعه الخاص وعبء نير مملكة

---

(١) فيرجيليوس فرم ، **دائرة معارف الدين** (نيويورك : فيلوسوفيكال لايبرارى ١٩٤٥) المقال الخاص « بالمسيح » ٤٨٥ .

الله » (٣٣٣) . وتدور معظم الطقوس والعادات اليهودية حول فكرة الاصطفاء هــذه ، فعلى اليهودى أن يتوقف عن العمل يوم السبت لا ليستريح بل ليتميز عن الآخرين ، وعليه أن يمارس عادة الختان لا لأسباب صحية وانما ليصبح مختلفا عن الآخرين ، وميثاق الله مع الشعب اليهودى هو الآخر وسيلة ليحتفظ الشعب بنقائه وصفائه ، وتنفيذ القانون اليهودى أن هو الا الطريق نحو الاحتفاظ بالتفرد .

ومعظم الطقوس اليهودية ، رغم أنها تكتسب طابع القداسة ، خالية من المحتوى الأخلاقي ، فياضة بالقيم القومية القبلية . ونلاحظ هذه اللاأخلاقية أيضا فى فكرة الأرض التى وعد الله ابراهيم بها ، فالوعد لا يستند لأى أساس أخلاقى لأن الأرض لم تعط لابراهيم لورعه أو تقواه ولم تعط للشعب اليهودى لنشر القيم الأخلاقية ، بل أعطيت لهم وحسب باعتبارهم الشعب اليهودى المختار (١)،وهذا سر صوفى لا يحتاج لأى تبرير أخلاقى . ورغم محاولات بوبر وبعض المفكرين **اليهود القدامى** اضفاء طابع من الأخلاقية والانسانية على مثل هذه المفاهيم الا ان طابعها الغالب لا يزال لا أخلاقيا ، وليس من السهل أن ينتزع من الوجدان الصهيونى اليهودى أســاطير أقدم من التاريخ ! (٢) .

ولعل الايمان بارتباط ما هو قومى بما هو مقدس هو الموضوع أو «الثيم» الأساسى فى الفكر الصهيونى والخاصية الأساسية التى تميز بنيته (على عكس الفكر الاصلاحى الاستنارى الذى حاول أن يفصل القومى عن المقدس وأن يقدم مفهوما انسانيا وعالميــا لليهودية مبينا بعدها التاريخى) . ويظهر هذا الارتباط بين الأمور القومية والدينية بشكل واضح فى كتابات الصهاينة الروحيين المتدينين ،فيحيل ميخائيل باينس Yehiel Michael Pines (١٨٤٢ — ١٩١٢) الكاتب البولندي الصهيوني يشير الى أن الشعب اليهودى لم يأت الى الوجود كجماعة مستقلة بطريقة عادية ، ولكنه جاء كجماعة بشرية

---

(١) نفس المرجع ١٤ — ١٧ .
(٢) أنظر أيضا **اليهــودية** .

لها ديانتها المستقلة ، مرتبطة بميثاق مشترك يقضى باتباع تعاليم هذه الديانة (٢٨٨) . ويؤكد بياليك أن الأمة اليهودية قد شكلت أسس « تراثها القومى ومؤسساتها القومية الرئيسية ضمن حدود مملكة الروح » فالشعب قد « غرس أقدامه » وثبتها « خلال كل العصور فى التربة الأزلية » (١٧٣) . ويقول الحاخام الصهيونى ، الألمانى الأصل ، ماير بار ايلان Mayer Bar-Ilan (١٨٨٠ — ١٩٤٩) أن القانون اليهودى لم يكن قط ذا طبيعة علمانية ، « فالكنيسة » اليهودية لم تفقد الاهتمام بأمور الدولة ، كما أن الدولة لم تفقد الاهتمام « بالكنيسة » « لأن هذين المجالين ليسا منفصلين ضمن الحياة اليهودية » (٤٢٠) . ولذلك فاليهود — على حد قول باينس — يمقتون القومية اليهودية العلمانية (٢٩٠) لأن « قوميتهم روحها التوراة وحياتها تعاليم التوراة ووصاياها » (٢٩١) . وهذه بطبيعة الحال قومية لا يمكن للجوييم فهمها « فغير اليهودى لا يتمكن من تقدير مفهوم التوراة بكل فحواه القومية لأنه لا يمكن التعبير عنه بشكل مرض بأية لغة أخرى » (١٧٤) (على حد قول بياليك) .

واذا كنا من قبل قد بينا أن المقدسات اليهودية قومية وأن القومية اليهودية مقدسة ، فاننا بعد هذا التحليل يمكننا أن نخطو خطوة للأمام ونقول أن **المقدس هو القومى عند اليهود وأن القومى هو المقدس** . هذا الخلط بين المطلق والنسبى يظهر بشكل صريح فى كلمات بوبر التالية : « أن تعاليم الدين اليهودى أتت من سيناء فهى تعاليم موسى (التى تلقاها من ربه) . أما روح هذا الدين فهى أقدم من سيناء ، هى الروح التى جاءت الى سيناء فتسلمت هناك ماتسلمته من شرائع . هى روح يعقوب و « يعقوب » هنا ترمز الى « اسرائيل » أى الى الشعب اليهودى نفسه » (١) . أن الشعب **الاسرائيلى تلقى وحيا دينيا** فى سيناء ولكن روح هذا الدين هى روح قوميته . ان الوحى الذى تلقاه موسى من الرب لا يختلف عن روح الشعب القومية ، أى أنه مثلما اختار الرب الشعب اختار الشعب الرب ، وحينما استمع الشعب لصوت الوحى فانه لم يسمع سوى

---

(١) أصول الصهيونية ٤ .

صـوته المقـدس وحـده . ولننظر الآن للطقـوس الدينيـة اليهودية المختلفة فى ضـوء فهمنـا لظاهرة التمازج بين المقدس والقومى : الختان أمر مقدس لأنه مرتبط بالميثاق ، ولكنه فى الوقت ذاته قومى لأنه عن طريقه سيتمكن اليهودى من الحفاظ على هويته. والقـانون اليهودى مقدس لأنه مرسل من الله ولكنه قومى لأنه سيساعد اليهود على التميز . والمسيح المنتظر مرسل من الله ، ولكنه قومى لأنه سيقود الشعب اليهودى للخلاص . وأرض الميعاد مقدسة ، ولكنها هى الأرض التى سيستوطن فيها الشعب . ونفس الظاهرة تتضح فى أبطال اليهود ، فموسى هو النبى ولكنه أيضـا قائد الجيش القومى ، وكهنة موسى مقدسون ولكنهم أيضا غزاة عنصريون لايرحمون ، والملوك الغزاة الغزلون أمثال سليمان يدخلون فى حوار مع الرب ويصلون الى مصاف الأنبياء . وقد لخص الحاخام الصهيونى كوك هذا الوضـع الفريد بقوله : « أن كل ممتلكات اسرائيل القومية ، العزيزة على قلوب اليهود ــ الأرض واللغـة والتاريخ والعادات ــ أن هى الا أوعية لروح الرب » (٣٠٤) .

وفكرة التشابه والتجانس بين الرب والشعب هى أساس فلسفة بوبر الوجودية الصهيونية ، فهو يعتبر الايمان الدينى بمثابة حوار دائم بين الانسان والله ، يدخل الانسـان فى علاقة أو حوار مع « الأنت » (ذات حية وفعالة أخرى) وليس مع « الهو » (موضوع ميت مغلق على نفسه) ، بمعنى أن الله يصبح حقيقة شبه ذاتية يمكن للذات البشرية الاحاطة بها ، وليس حقيقة مثالية تحاول الذات الانسانية الوصول اليها (١) . **وبوبر يلغى وجود الذات اليهودية الفردية** لأن اليهودى لا وجود له الا كعضو فى مجموعة ، والحوار لا يتم الا بين الخالق والشعب ككل وليس بين الخالق واليهودى كفرد . وهكذا حسب التصور اليهودى القديم والصهيونى الحديث يذوب الله فى الشعب ويذوب الشعب فى الله مكونين كلا واحدا غير متمايز . لقد حل المطلق فى النسبى حلولا كاملا ، كما ابتلع النسبى المطلق ابتلاعا كاملا ، ولذلك يمكن لليهودى أن يعى الله بأن يعى

---

(١) مارفن هالفرسون ، **مرشد الى اللاهوت المسيحى** (نيويورك : ميريديان بوكس ١٩٦٠) ١٧٢ ــ ١٧٦ .

نفسه ، أو كما يقول الحاخام كوك : « ان روح اسرائيل وروح الله هما شيء واحد » (٣٠٤) ، وكما يقول الحاخام المحافظ شختر : « عندما وجدت اسرائيل نفسها وجدت الهها ، وعندما أضاعت اسرائيل نفسها أو عندما بدأت تعمل لمحو نفسها ، كان من المؤكد أنها سوف تنكر الهها » (٣٧٨) .

ويمكن القول أننا اقتبسنا آنفا من كتابات بعض الصهاينة المتدينين أمثال كوك ، أو المتصوفين أمثال بوبر أو الروحيين أمثال بياليك . ولكن أى نظرة — ولو عابرة — يلقيها المرء على الكتابات الصهيونية تقنعه بأن العلمانيين احتفظوا ببنية أسطورة الأمة المقدسة بعد أن صاغوها صياغة « علمانية » ، فاستحدثوا مفهوم « أمة الروح » القائل بأن القومية اليهودية لا تستند الى أى أساس مادى معروف وانما تستند الى التراث اليهودى والروح اليهودية، وانها أمة ذات رسالة خاصة . وقد يختلف محتوى الأسطورة العلمانية عن الأسطورة الدينية الا أن البنية متماثلة . وقد دافع هرتزل العلمانى الليبرالى الغربى عن مفهوم أمة الروح ، وشاركه فى ذلك بن جوريون « الاشتراكى الديمقراطى » ، بل أن دوف بير بوروشوف Dov Ber Boroshov (١٨٨١ — ١٩١٧) المادى الجدلى الصهيونى هو الآخر تأثر بفكرة الأمة التى لها وضع متميز عن وضع كافة الأمم . ولا يزال الصهاينة ينظرون الى اسرائيل على أنها رائدة بعث روحى عالمى هائل ، وهم فى هذا لا ينظرون الى اسرائيل الحقيقة ، اسرائيل النابالم والتوسع والارهاب ، بل الى اسرائيل دولة الشعب المختار .

بل أن فكرة أمة الانبياء والكهنة والمسحاء المخلصين لا تزال تجد بعض الصدى بين المفكرين «العلمانيين» الصهيونيين ، فبن جوريون الاشتراكى الروحى كثيرا ما يتحدث عن اليهودى العادى على أنه نبى وشهيد بل ومسيح مصلوب . كما يؤكد نحمن سيركين « الاشتراكى » أن استشهاد اليهودى « قد رفعه الى مستوى خادم (البشرية) البائس ... ومن تاج آلامه أرسل ... شعاعا للعالم الذى يلعنه ... وفى رقة مشاعره التى ولدها الألم يصلى الى ربه منأجل الجنس البشرى الذى نبذه » (٢١٩) . أما ليلينبلوم العلمانى فيقول ان كل اليهود « مقدسون سواء كانوا غير متدينين أم

أرثونكسيين » (٧١) . ويشير أحد المؤلفين اليهود الصهاينة الى بن جوريون على أنه النبى المدجج بالسلاح ، كما يشير شاختمان المؤرخ الصهيونى الى جابوتنسكى على أنه نبى ومحارب .

واذا كان الاسرائيلى العادى لا يرى نفسه على أنه نبى ومسيح مخلص كما يدعى بن جوريون الا أنه لا يزال يرى روح القداسة تسرى فى ممتلكاته القومية ، فالوجدان الاسرائيلى يخلع صفة القداسة على أشياء وظواهر يعتبرها معظم الناس (متخلفين كانوا أم متحضرين) ظواهر نسبية تاريخية . فانتصارات الجيش الاسرائيلى وحركة الكيبوتزات وبن جوريون تحيطهم هالة صوفية ، بل أن بطاقة الهوية الاسرائيلية تحيطها هى الأخرى هالة من القداسة (وهذا يفسر الغضب « القومى » الذى سببه تمزيق شالوم كوهين عضو الكنيست لبطاقة هويته). وأكثر الأشياء قداسة لا يزال كما هو الحال فى الماضى ، أرض الميعاد . وقد عبر ديان عن هذا الموقف تعبيرا دقيقا حينما أشار الى أرض اسرائيل على أنها « هى ربه الوحيد » . فالتقديس هنا ليس مثل التقديس المجازى الذى يمارسه أى مواطن نحو وطنه وشعبه ، بل هو تقديس حرفى من نوع فريد لا يمكن فهمه الا بالعودة للمفاهيم اليهودية القديمة التى تذيب الله فى الشعب والأرض وتذيب الشعب والأرض فى الله .

٣ ــ وحدة الوجود اليهودية

وحلول الله فى الأمة المقدسة والأرض المقدسة هو ولا شك ضرب من حدة الوجود أو البانثيزم Pantheism . والمؤمن بوحدة الوجود فى صورتها المتطرفة يتخذ ، عن وعى أو عن غير وعى ، موقفا معاديا من الانسان والتاريخ والوعى والثورة . فحينما يحل الله فى الأرض أو فى تاريخ الأمة وعندما يبلغ الحلول ذروته فيصبح الله هو الأرض والأمة (وهذا هو ثالوث وحدة الوجود : الله والانسان والطبيعة) فان المطلق يحل فى النسبى ويمتزجان ، وينجم عن هذا أن يفقد المطلق سموه ووجوده كمثل أعلى ، كما يفقد النسبى حدوده وكيانه . والايمان بالمثل الأعلى لازم لأى تمرد انسانى على الواقع ولأى تطور ديالكتيكى يتخطى الحركة الميكانيكية التى تكرر نفسها ، ويتعدى

التوازى والتقابل والتعادل . فالمثل الأعلى هو مايدفع الانسان نحو محاولة تخطى واقعه المادى وتخطى حدود ذاته لتحقيق وجود أعلى وافضل، وهو بهذا يتخطى البيئة والطبيعة وكل الأشياء ليعلى ذاته الانسانية دون أن يذيبها فيما هو خارجى عنها أو أعلى منها . ان أى فلسفة انسانية هيومانية لابد وأن تؤمن بمقدرة الانسان على التسامى (ولعل هذا هو ما عناه ماركس حينما أشار الى أن الماركسية هى الترجمة المادية العلمانية للأساس الروحى والاخلاقى للمسيحية) . والايمان « بمقدرة الانسان على التسامى » هو فى واقع الأمر ايمان بأن الانسان ليس جسدا محضا أو كما ميكانيكيا غير قادر على ترويض الطبيعة وتصنيفها ، كما أنه يعنى أن وعى الانسان « الذاتى » الخلاق يميزه عن بيئته « الموضوعية » ، وأن عقله غير مساو لجسده والا لحقق نوعا من التوازن يقضى على أى حركة وتقدم . أما فلسفة وحدة الوجود اليهودية فهى تساوى الانسان اليهودى بالأرض التى يعيش عليها ، بل وتجعل الأرض هى المحور والمحرك الأساسى لحياته وتاريخه . كما أنها تذيب وجوده ووعيه الفرديين فى الذات القومية العليا ، وهى بذلك تحطم كل حدود وجوده التاريخى النسبى المحسوس الذى يميزه ككائن فردى له خصوصيته ، وتحل محله الوجود الجماعى للشعب المقدس، وهو وجود مطلق غير محدد أو معين أو متنوع ، ليس فيه تدرج ولا يمكن تصنيفه أو تسميته . ان فلسفة وحدة الوجود اليهودية تذيب اليهودى الفرد فى الأمة اليهودية والأرض اليهودية ، ثم تخلع القداسة على هذه الأشياء (وهذه هى الوثنية بعينها) .

ولكن وحدة الوجود اليهودية (الصهيونية) تأخذ صورة غير واضحة أو ظاهرة ، فوحدة الوجود التقليدية التى تسود بين الشعوب الوثنية أو البدائية ترى أن القوة المقدسة العليا تحل فى العناصر الطبيعية المحيطة بها مثل الشمس أو الأرض أو حتى التماثيل التى ترمز لها . أما داخل اطار وحدة الوجود اليهودية فان المطلق أو المقدس يحل فى شىء غير ملموس هو الأمة اليهودية ذاتها : التاريخ والشعب والدولة ، وحلول المطلق فى أشياء غير ظاهرة يزيد من هلاميته ولا تحدده وسيطرته . ولعل وحدة الوجود اليهودية قد أخذت هذا الشكل لان اليهود كانوا شعبا متنقلا مما اضطرهم الى فصل القداسة عن العناصر الطبيعية الأزلية

الثابتــة ، ولكنهم جعــلوها تحــل فى الشىء الوحيــد الدائــم معهم : الأمة اليهودية وتاريخها . ومما عمق هذا الاتجاه أن الدولة اليهودية لم تعمر طويلا ، وأن اليهود استمروا فى التجول الجسدى والعاطفى طيلة تاريخهم ، ولذلك فقد اســتمرت مقدســاتهم فى الارتباط بوجودهم هم أنفسهم ، وانفصلت عن أى وثن خارجى عن أنفسهم . أى أن الوثن اليهودى القديم (والصهيونى الحديث) هو الذات اليهودية القومية ، والذات القومية وثن لأنها مطلق يعلو على الوجود الفردى ويلغيه بكل جدة وضراوة . ولهذا قد يمكننا القول أن عداوة العبرانيين لعناصر الطبيعة لم تكن ضربا من الانسانية أو التقدم ، وانما هى نوع من عبادة الذات أو الوثنية القومية التى لا تختلف كثيرا فى بنيتها عن الوثنية الطبيعية التى كانت سائدة فى الشرق الأوسط قبل ظهور الأديان السماوية أو عن عبادة الأسلاف أو الأسرة المــالكة التى لا تزال سائدة فى بعض بلاد آسيا . (ولكن لابد وأن نشير الى أن تقديس أرض الميعاد يدل على وجود آثار ظاهرة من وحدة الوجود الطبيعية فى اليهودية) .

واكتشافنا لهذه البانثيزم يفسر كثيرا من سمات رؤية اليهود لأنفسهم كبشر ولعلاقتهم بالعالم . فهم مثلا يضعون أنفسهم فى مقابل الجوييم لأن الجوييم لا يشاركونهم قداستهم ولا يدورون معهم داخل الدائرة اليهودية المقدسة ولا يحملون نير مملكة السماء . ووحدة الوجود تفسر هذا الاهتمام اليهودى والصهيونى بكل ما هو يهودى بغض النظر عن قيمته الانسانية أو الأخلاقية . كما أنها تعطينا مفتاحا لفهم هذا الترابط الشديد الذى يسم حيــاة اليهود أينما وجدوا ، وكذا انتشار النزعات النبوية المسيحانية بينهم (وهــذا بدوره قد يساعدنا فى تفسير ظاهرة وجود عدد كبير من الثوريين بين اليهود) . ووحدة الوجود قد تعطينا تعليلا جديدا لمــا يسمى « بالتسامح » اليهودى تجاه الديانات الأخرى ، فاليهود ليس عندهم أية نزعات تبشيرية ، وقد فسر هذا على أساس أنه ضرب من التسامح ورحابة الرؤية ، بينما تفسر النزعة التبشيرية عند المسلمين والمسيحيين على أنهــا ضرب من التعصب وضيق الأفق . ولكن التسامح اليهودى هو امتداد للايمان بقداسة الأمة اليهودية التى يحل فيها الله ، وهذه قداسة موروثة وحتمية لا يملك اليهودى

قبولها أو رفضها ، اذ أنها جزء من كيانه ، ولذلك فليس فى مقدوره نقلها للآخرين ، فتسامحه هو فى الواقع تعبير عن عــدم اكتراثه بالآخرين وعن احساسه باختلافه وتميزه وأحيانا تفوقه عليهم . أما « النزعة » التبشيرية الاسلامية والمسيحية ، بغض النظر عن موقفنا منها وعن نتائجها العملية ، فهى نابعة من الايمان بأن كل الناس فى امكانهم الوصــول الى الخلاص عن طريق الايمان بالله وعن طريق تنفيذ تعاليمه وقوانينه المرسلة (على عكس القانون اليهودى الذى لم يرسل الا الى اليهود وحدهم كجماعة قومية) . ولكن يجب أننذكر أن هذا «التسامح» يتلاشى وعدم الاكتراث يختفى والتمركز على الذات القومية المقدسة يأخذ شكلا عدوانيا ضاريا عند ما يحاول الفلسطينيون الاســتمرار فى وجودهم التــاريخى النسبى داخل أرض الميعــاد المقــدسة وعندما يمتلك الأنبيــاء المقدسون طائرات الفانتوم (المقدسة أم النسبية ؟) .

وغنى عن الذكر أن ظروف اليهود الاقتصادية والحضارية فى الجتو (واسرائيل فيما بعد) هى التى أفرزت ثم عمقت هذه النزعة البانثية وهى التى سمحت لها بالاستمرار . وأكبر دليل على ذلك أنه أثناء حركة الهسكلاه فى أوروبا ظهر الفكر اليهودى الاصلاحى الذى حاول أن ينسلخ الى حد ما عن وحدة الوجود اليهودية . وفى داخل اسرائيل ذاتها نجد أنه حينما يزداد ضغط الواقع على الاسرائيليين ، كأن يصعد الفدائيون عملياتهم وينجحوا فى انجاز بعضها ، ينحسر الوعى الزائف وتبدأ بعض الأصوات « العاقلة » فى التحدث عن حقوق الفلسطينيين ، أى أن دائرة وحدة الوجود اليهودية تنفتح قليلا وتعترف بعض الشىء بالواقع الخارجى النسبى اذا ما أثبت هذا الواقع وجوده وفعاليته .

٤ ــ حلول الله فى التاريخ

التصور اليهودى القــديم والصــهيونى الحديث اذن يرى أن الانسان اليهودى ينتمى الى شعب مقدس يحل الله فيه وفى أرضه ، ولكن ماذا عن وجوده الفعلى والمحدد داخل التاريخ والزمان ؟

الشعب المقدس لا يخضع بأية حال للمقاييس العادية ، فحياته هى تعبير خالص عن ارادة الهه . وهذا التصور يختلف الى حد كبير عن التصور الاسلامى والمسيحى لحياة الانسان وتاريخه الذى يرى أن الله قد ترك الانسان حرا فى التاريخ ليحقق ارادته الانسانية ، ولكنه فى الوقت ذاته لم يهجره كلية ولم يتركه يغرق فى النسبى . أخبر الله الانســـان أنه سيثيبه ويعاقبه فى اليوم الآخر « خارج التاريخ » والزمان الانسانى كلية ، ولذلك فالانسان حر فى داخل التاريخ . ولكن الله طالبه باتباع القيم الأخلاقية وأرسل له الكتب السماوية ولذلك فالانسان ليس ضائعا يدور فى حلقات مفرغة .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش [فى التاريخ النسبى] أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت [وتواجه المطلق] غدا » ، هذه دعوة للانسان الا تستغرقه الأشياء النسبية والعادية والواقعيــة وأن يحاول تخطيها والتســـامى عليها ، ولكنهـــا فى الوقت نفسه تأكيد لحق الانسان فى أن يعيش داخل التاريخ حرا ليحقق لنفسه أكبر قسط من السعادة . يقف الانسان قدماه مغروستان فى الأرض وعيونه شاخصة للسماء ، وهذا هو سر عظمة الانسان ومأساته ، وهذا أيضا هو سر وجوده الانسانى المركب . هذا الصراع صفى الى حد كبير فى التراث اليهودى ، فحياة اليهودى لا تتميز بهذا التوتر لأنه ليس الا جزءا من كل قومى مقدس لا وجود تاريخى له ، اذ أن التاريخ اليهودى تاريخ لا جدل فيه ولذا فهو ليس بتاريخ حقيقى ، فاله اسرائيل — كما بينا — لم يعلن عن نفسه فى قوى الطبيعة وانما فى التاريخ وفى التاريخ اليهودى على وجه الخصـــوص .

وسفر الخروج يقدم تصـــورا للتاريخ يتـــدخل الله فيه من آونة لأخرى ، والأمة ذاتها لم تأت للوجود من خلال تطور تاريخى بل من خلال ارادة الله ، وبذا تصبح اسرائيل أمة ومجتمعا دينيا فى الوقت ذاته (٣٣٦) كما يقول بوبر ، وهى لا تزال حتى وقتنا هذا شعبا ومجتمعا دينيا (قوميا — مقدسا) . ويفرق بوبر بين التـــاريخ (التجربة التى تعيشها الأمم على حد قوله) والوحى (وهو التجارب الهامة الخالصة التى يعيشها الأفراد) ، وهو يرى أنه حينما يتحول الوحى الى أفكار تفهمها الجماهير وتؤمن بها فانها تصبح عقائد . ولكن هذا هو الوضع بالنسبة لسائر الأمم ، أما بالنسبة لاسرائيل فالأمر مختلف اذ أنه ثمـــة تطابق كامل بين الوحى والعقيـــدة

والتاريخ : « ان اسرائيل تتلقى تجربتها الدينية الحاسمة كشعب ، ليس النبى وحده هو الذى تشمله عملية الوحى بل المجتمع ككل ، فمجتمع اسرائيل يعيش التاريخ والوحى كظاهرة واحدة ، التاريخ كوحى ، والوحى كتاريخ » (٣٣١) . (النسبى كمطلق والمطلق كنسبى ، المقــدس كقومى والقومى كمقدس ، الذات كموضـــوع والموضوع كذات ، وكلها تندمج فى دائرة « الواحد » المطلق) . ان حلول الروح الالهية فى اليهود حولهم الى أنبيـــاء ، كما حول التاريخ اليهودى الى وحى مستمر ، ولذا فاليهود حسب تصور بوبر الصوفى « أمة تحمل وحيا [الهيا] » (٣٣٦) عبر تاريخها المقدس ، الذى لم يكن سوى « صراع لا ينتهى من أجل وضع مثل الأنبياء موضع التطبيق » (٢١٧) كما يقول سيركين الاشتراكى !

وماذا عن وجود اليهود الحقيقى التاريخى ، بل وفى مكان مثل الجتو ؟ هذا الوجود يصبح كيانا « مؤقتا واصطناعيا » (على حد قول أحاد هعام) يحفظ الله فيه الأمة وروحها الى أن يحين الوقت الذى « يشاء فيه اعادة شــعبه الى أرضه وحريته » (١٥١) . أن الوجود التاريخى البائس هو مجرد الجسد الذى تحل فيه الروح لتعبير المؤقت عن نفسها .

يصبح التاريخ اليهودى اذن هو النقطة التى يلتقى فيها الخالق مع الشعب ، ويرى بعض فلاسفة التاريخ أن اليهود هم أول من اكتشف فكرة التطور التى هى عماد الوعى التاريخى (على عكس الاغريق القدامى الذين كانوا يرون التاريخ بشكل فلسفى هندسى) ، كما أنهم يقولون أن حلول الله اليهودى فى التاريخ قد حوله الى خط مستقيم يتحرك نحو هدف أعلى وليس شكلا دائريا هندسيا يتحرك دون غاية . ولكن هل انطوى التصور اليهودى للتاريخ على فكرة التقدم بالفعل ، أم أنه تصور ديالكتيكى زائف يعطى احساسا بحركة زائفة تخفى جمود وسكون المطلقات ؟ كل الظواهر التاريخية حسب التصور اليهودى قد قررت حركتها حسب خطة ربانية مسبقة وضعت قبل بدء التاريخ ، بل ان تدخل الله المستمر والعلنى هو تأكيد بأن التاريخ يدفع من الخارج وأنه لا مجال للارادة البشرية فيه . ان التاريخ اليهودى بدأ من مطلق لا يقبل النقاش أو التقييم

(الميثاق مع ابراهيم) يقطعه المطلق من آونة لأخرى (الميثاق مع اسحاق ثم يعقوب) وينتهى بمطلق : ظهور المسيح المنتظر أو العصر المسيحانى (حسب الرواية العلمانية التقدمية) . وتدخل الله المستمر فى التاريخ هو ما يكسبه معنى ويضفى على فوضاه اللامتناهية شكلا : « ان يد الله لم تقد هذا الشعب خلال أربعة آلاف عام وعبر آلام الجحيم ، ولم تحضره مرة أخرى الى أرضه للمرة الثالثة (فى العصر الحديث) دون أى معنى » (١٨٠) كما يقول بياليك .

ومسار التاريخ بهذا المعنى يصبح له هدف واضح ، ويتجسد هذا الهدف فى **فكرة المسيح المنتظر** الذى هو نهاية التاريخ . ان تقاليد الايمان بالخلاص تؤكد « وجود النور الروحانى الذى يمكن اليهودى من أن يفهم نفسه ويدرك معنى جميع أحداث تاريخه حتى الجيل الأخير الذى ينتظر الخلاص والذى بات فى متناول يده » (٣٠٥) . ان مسار التاريخ يصبح واضحا ، له بدايته ونهايته ، تماما مثل أى مسرحية بل وأى ميلودراما ، لأن الأخيار أخيار والأشرار فى منتهى الشر ، كما أنه يشبه أى ميلودراما لها نهاية سعيدة . أن « موسى وايليا هما جزء من عملية الخلاص هذه ، أحدهما يمثل بدايتها والآخر قمتها ، ولذلك فكلاهما يحقق هدفها » (٣٠٠) . وأسطورة المسيح المنتظر قد تنطوى على فكرة التقدم نحو هدف أعلى الا أنها على الرغم من ذلك لا تاريخية **لأنها تفترض أولا ثبات النقطة التى يتحرك نحوها التاريخ ، ولأنها تفترض ثانيا عدم جدوى الارادة الانسانية** ، اذ أن العصر المسيحانى سيأتى عن طريق تدخل الله . ان فكرة التقدم والتغير والتبدل ، التى هى عماد التاريخ والوعى التاريخى ، تستند الى فكرة النمو التدريجى للوعى الانسانى المستقل الحر عن طريق التجريب والمحاولة الواعيين وعن طريق الخطأ والنجاح ، وكلما نما هذا الوعى كلما ازداد نجاح الانسان وكلما ازداد تحرره من الطبيعة ومن قانون الضرورة وتحكم فيهما . ولذلك يكون الهدف المسيحانى الذى يتسم بالثبات (رغم كل نبله وسموه) والذى يلغى الوعى الانسانى (رغم كل الفوائد الجمة التى قد تعود علينا من ذلك) هدفا هو فى صميمه

معاد لفكرة التقدم ، لأن الانسان التاريخى انسان حر واع متطور يبدل ويحور فى هدفه بمقدار زيادة نموه وبمقدار نجاحه وفشله وحسبما تمليه عليه ظروفه المحسوسة(١) .

نعم ! ان فكرة المسيح المخلص قد تعطى التاريخ اليهودى معنى ، ولكنه معنى مقدس يلغى أى وجود نسبى له كما يلغى تنوعه وصراعاته ، لأن التاريخ يتحرك دائما وأبدا مدفوعا من الخارج نحو نقطة ثابتة هى النهاية التى لا يكون بعدها أى تطور . ان التاريخ يتقدم نحو « نهاية سعيدة » مقررة ومحسوبة ، وبذا يصبح التاريخ خاليا من امكانيات الانتصار والهزيمة ، فالانتصار هو انتصار اليد المحركة أما الهزيمة فهى دائما مؤقتة ، ولهذا السبب لا تسمع اسرائيل سوى « لحن الخلاص » ولا تصغى الا الى « تموجات أعمالها التى ستنتهى فقط بقدوم أيام المسيح المنتظر » (٣٠٠) . فالخلاص متواصـــل ، والخلاص من مصر (فى أول الأيام) والخلاص النهائى (فى آخرها) هما جزء من عملية واحدة تقوم بها « اليد القوية والذراع الممدودة ، انها عملية بدأت فى مصر ولا تزال واضحة فى التاريخ كله » . ان التاريخ اليهودى يصبح تاريخ مثاليات وكائنات ميكانيكية مقدسة متحركة ، انه ليس تاريخا لبشر محسوسين يعيشون فى فرح وحزن معرضين للنصر والهزيمة .

ولعل هذا يفسر التناقض الواضح فى التصور اليهودى للخالق ، فهو اله قومى شخصى ، الا أنه فى الوقت ذاته اله رهيب يرهق عباده ويحرمهم حريتهم الانسانية ، ولذلك فذكر اسمه أو حتى كتابته شىء مجرم . ولا يزال بعض اليهود الأرثوذكس يحرمون كتابة اسم الله وحينما يريدون الاشارة له فانهم يكتبون رمزا جبريا خاليا من أى ايحاءات مثل علامة x أو شرطة ــ . ان الرمز الجبرى هو وحده قادر على الاشارة الى المطلق الذى يعلو على الانسان ويلغى ارادته كلية .

---

(١) فيرجيليوس فيرم (محرر) دائرة معارف الدين المثل المعنون « التقدم » ٦١٢ ــ ٦١٤ .

وماذا عن تاريخ الجوييم ؟ هل يتسم تاريخهم بالتنوع والتناقض ؟ نعم ولكن هذا التنوع وذلك الصراع غير مهمين لليهود ، بل انهما غير حقيقيين فى نهاية الأمر . فالتاريخ الانسانى كله يدور حول الأمة اليهودية التى تقف فى وسطه تجسد فكرة الله ، « انها حجر الزاوية فى حركة التاريخ نحو الخلاص » (٣٣٣) كما يقول بوبر . وكما أن وجود المسيح المنتظر أساسى لاضفاء معنى على التاريخ اليهودى ، فوجود اليهود (أمة المسحاء المخلصين) داخل التاريخ الانسانى أساسى لاضفاء معنى عليه هو الآخر . « ان تأمين نظام العالم الذى يترنح بين عواصف الحروب الدموية » حسب تصور الحاخام كوك يتطلب بناء الدولة اليهودية ، هذا « وبناء كيان الشعب واظهار روحه هما عملية واحدة لا يمكن الاستغناء عنها لاعادة بناء العالم المهتز الذى ينتظر القوة العليا والموحدة الموجودة فى تجمع اسرائيل المقدس » (٢٩٧) . الأرض تميد والدنيا تهتز والفوضى تعم لأن الأمة المقدسة ليست فى مركز التاريخ . وهس العلمانى لـه رأى مماثل شرحه فى كتـابه **روما والقدس** (٣١ ــ ٣٢) ، فهو يرى أن تاريخ الانسانية أصبح **مقدسا** من خلال اليهود واليهودية ، لأنه أصبح « تطورا عضويا وموحداً يعود فى أصله الى حب الأسرة » (٣١) . بل ان سيركين الاشتراكى يرى « أن الانتحار القومى اليهودى يشكل مأساة رهيبة لليهود أنفسهم ، كما ستكون الحقبة التى تقع فيها هذه الواقعة أفجع ما سيعرفه تاريخ البشرية « لأن القضاء على اليهود لا يعنى سوى القضاء على البشرية » (٢٢٨) .

تقف الأمة برسالتها الأزلية الثابتة فى مركز التاريخ متخطية كل حدوده ومجسدة المثل العليا الربانية ، ومرة أخرى يستمد التاريخ معناه من وجود المطلق المستقل المنغلق على نفسه فى مركزه أو فى نهايته ، ومرة أخرى نعود للدائرة المغلقة التى لا علاقة لها بأى تاريخ محسوس أو واقع حى .

ومما يجدر ذكره أن الدائرة اليهودية المغلقة ليست روحيـة وتاريخية فحسب بل وجغرافية أيضا ، فاله اليهود القومى مرتبط بالشعب وبالأرض الفلسطينية ، والفكر اليهودى الصهيونى يدور حول أرض الميعاد التى يجب أن يعود لها الشعب الذى هو « حجر

زاوية الخلاص » . بل ان التصور اليهودى القديم يعطى أرض الميعاد بالنسبة لبقية العالم مكانة تشبه مكانة اليهود بالنسبة لتاريخ العالم ومكانة المسيح المخلص بالنسبة لتاريخ اليهود . فأرض الميعاد حسب التصور اليهودى هى مركز الدنيا لأنها توجد فى مركز العالم ، وأورشليم تقع فى وسط أرض الميعاد ، والهيكل يقع وسط أورشليم ، وقدس الأقداس فى وسط الهيكل ، وتابوت العهد فى وسط قدس الأقداس ، وحجر الأساس أمام تابوت العهد ، وهذه النقطة هى مركز العالم ، أنها المسيح المنتظر الجغرافى ان صح التعبير (١) . ان اليهود ليسوا مقدسين فحسب بل أنهم يقفون كالدائرة المغلقة على نفسها وسط التاريخ والجغرافيا !

وقد يحق للقارىء أن يتساءل الآن عن علاقة اسرائيل بهذا الموقف من التاريخ ، وكيف يمكن القول بأن دولة اسرائيل تقف « ضد التاريخ » أو خارجه رغم أنها حقيقة واقعة (بغض النظر عن موقفنا الأخلاقى أو السيكولوجى منها) . ان وجود اسرائيل أمر ولا شك فيه ، ولكننا مع ذلك لا بد وأن نميز بين « الأمر الواقع » و « الواقع التاريخى » ، « فالأمر الواقع » ليس بالضرورة ممثلا للحركة العامة للتاريخ ، أما «الواقع التاريخى»فهو النقطةالتى يلتقىفيها الحاضر بالماضى بالمستقبل . بهذا المعنىيمكن القول اندول **الصليبيين** التى حكمت بعض أجزاء الشرق الأوسط ما يزيد عن مائة عام كانت تتمتع بوجود واقعى من الناحية الامبريقية وحسب ، ولكنها لم تصبح أبدا جزءا عضويا من تاريخ المنطقة . فهذه الدول كانت تعبيرا عن ظواهر خاصة بالتاريخ الأوروبى فى ذلك الوقت ، ولتفسير ظاهرة دول الصليبيين يجد المؤرخ نفسه مضطرا لدراسة التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى ، فظهور هذه الدول الصليبية مرتبط بمسار هذا التاريخ . وبعد ذلك ظهر تاريخ الشرق الأوسط كعنصر مضاد يحاول أن يوقف مسار هذه الحركة الغربية عليه ويحاول أن يبتلع هذا الجسم الدخيل ، وقد نجح فى ذلك فى نهاية الأمر . ان الدول الصليبية كانت على علاقة **عضوية** بالتاريخ الأوروبى ، **ميكانيكية** بالتاريخ العربى .

---

(١) **اليهودية** ١٠ .

ودولتا روديسيا واتحاد جنوب افريقيا تصلحان كمثال لدولتين لهما وجود امبريقى وحسب ، ولذا لا توصفان بأنهما « افريقيتان » رغم وجودهما الفعلى فى افريقيا ، ورغم ان احداهما هى أكثر الدول تفوقا من الناحيتين الصناعية والعسكرية فى القارة . ومع ان « تاريخ » اتحاد جنوب افريقيا يعود الى القرن الماضى الا أن أغلبية دول العالم ترفض الاعتراف به ، وترى أن ذلك مرهون بمدى استعداد **المستوطنين البيض** « الأوروبيين » للتعامل مع الافريقيين الذين يشكلون عماد « الواقع التاريخى » فى المنطقة .

واذا أردنا أن نضرب أمثلة أخرى من العصر الحديث لوجدنا أن **المستوطنين الفرنسيين** فى الجزائر كانوا يتمتعون بوجود امبريقى ميكانيكى لم يقدر له أن يصبح وجودا عضويا تاريخيا . فاستيطان بعض الفرنسيين فى الجزائر كان مرتبطا بنمو الراسمالية الفرنسية فى مرحلة معينة من تاريخها ، كما كان مرتبطا برغبتها فى السيطرة على السوق الجزائرى والافريقى سيطرة كاملة . وقد ظل المستوطنون مرتبطين ارتباطا عضويا بالمصالح الامبريالية الفرنسية ، ولذلك لم يضربوا جذورا فى الوطن الجديد ، بل وقفوا ضد مسار التاريخ وجدله ، وهو التاريخ الذى دحرهم وابتلعهم فى نهاية الأمر مثلما دحر وابتلع الصليبيين من قبل . وقد تم هـذا بسبب مقاومة الجزائريين العرب الذين اضطروا الراسمالية الفرنسية الى تغيير استراتيجيتها والى تبنى موقف جديد أدى الى تخليها عن المستوطنين .

ومما له دلالته أن بن جوريون الصهيونى اقترح على الجنرال ديجول انشاء دولة استيطانية على ساحل الجزائر تضم كل المستوطنين الفرنسيين ، على أن يقطن العرب الصحراء الواسعة ! ولكن ديجول بثاقب بصيرته التاريخية رفض أن ينشىء « اسرائيل أخرى » (على حد قوله) ، على الرغم من أن « اسرائيل الفرنسية فى الجزائر » كان من الأيسر تشييدها من الناحية الامبريقية من « اسرائيل الصهيونية فى فلسطين » ، لأن المستوطنين كانوا هناك بالفعل على مقربة من الوطن الأم ! ولكن ديجول مع ذلك رفض الحل « الصـهيونى » للمشكلة لأنه حل مبنى على خلق حقائق

[امبريقيــة] جديدة (على حد قول ديان) وعلى تجاهل كامل للواقع التاريخى ومساره (وهذه هى الترجمة الفعليــة للجــانب الذى شخصناه من قبل فى الرؤية الصهيونية : علمية السلوك اليومى ، غيبية الرؤية العامة) .

فى ضوء كل هذه الملاحظات يمكننا أن نعتبر اسرائيل حتى هذه اللحظة مجرد واقع امبريقى وحسب ، فهى دولة انتجتها ظروف اليهود الاقتصادية والحضارية فى أوروبا ، ثم نمت وترعرعت تحت رعاية الامبريالية العالمية التى لها مصالح فى المنطقة . وهى رغم وجودها الفعلى فى منطقة الشرق الأوسط الا أنهــا الى حد كبير لا تزال امتدادا عضويا لتناقضات ومصالح الامبريالية العالمية فى المنطقة ، ولهــذا السبب يهتم الاسرائيليون بعلاقتهم بأوروبا وأمريكا أكثر من اهتمامهم بعلاقتهم بجيرانهم الآسيويين (على حد قول بن جوريون) . وحتى بعد أن بدأت اسرائيل فى تحقيق بعض الاستقلال عن الامبريالية العالمية نجدها مع ذلك مصرة على الحفاظ على وجودها الميكانيكى (وهى فى هذا تشبه روديسيا فى بعض الوجوه ، التى ضعفت صلتها بانجلترا ، ومع ذلك لم يطرأ أى تحسن على علاقة المستوطنين البيض بسكان البلاد الافريقيين) .

ان وجود اسرائيل فى المنطقة وجود ميكانيكى شأنه فى ذلك شأن أى جيش أو « جيب » استعمارى أتى من الخارج ليخدم مصالح الاستعماريين فيضطر السكان أصحاب الحضارة والتاريخ المحليين أن يدافعوا عن أنفسهم فى مواجهة هذا التحدى . قد يتعلم السكان المحليون الكثير من هذا الجيش ، وقد يغيرون من نمط حياتهم ومسار تاريخهم ، كما فعل العرب بعد الغزو الأوروبى ، ولكن وجوده مع ذلك يظل وجودا ميكانيكيا .

والوجود الاسرائيلى الميكانيكى ، الذى يشبه من بعض الوجوه الوجود اليهودى الجتوى ، هو الذى يفسر لم تجــد التصورات الصهيونية اللاتاريخية فى اسرائيل تربة خصبة ترتع فيها . وهو وجود لم يتم عفويا أو نتيجة للصدفة العمياء وانما هو جزء من الخطة الصهيونية ،اذ أن الوجود الميكانيكىهو الوجود **المنفصل** الذى

عن طريقه يمكن للأمة المقدسة ذات التاريخ المقدس الاحتفاظ بهويتها الفريدة المقدسة ، أى أن الوجود الامبريقى الميكانيكى هو الترجمة السياسية للتصور اليهودى القديم والصهيونى الحديث للشعب والتاريخ اليهوديين . وهذا التصور الانفصالى الميكانيكى للوجود اليهودى فى فلسطين يتضح فى كتابات الصهاينة الواحد بعد الآخر ، ففى كتاب **البعث والقدر** يشبه بن جوريون اليهود الموجودين فى فلسطين **بالكونكوستادور** (غزاة أمريكا اللاتينية من الأسبان)(١)، بينما شبههم وايزمان **بالمستوطنين الفرنسيين** فى تونس والجزائر(٢). وقد كتب فلاديمير جابوتنسكى Vladimir Jobotinsky (١٨٨٠ — ١٩٤٠) الى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى مبينا له فى صراحة بالغة أن اليهود ليس لديهم أى سياسة نحو العرب « **فالتاريخ** يعلمنا أن الاستعمار قد قوبل على الفور بعداوة شديدة من السكان الأصليين ... وقد يكون هذا أمر يبعث على الحزن ، ولكن هذا هو الحال ولا يمكن استثناء اليهود من هذه الحقيقة » (٣) . ولهذا السبب طالب جابوتنسكى الصهاينة أن يدربوا أنفسهم على فنون الحرب تماما كما فعل **المستوطنون البيض** فى كينيا (٤٣٦ ، ٤٣٧) ، أى أنه يرى أنه على الشعب المختار العودة الى أرض الميعاد متجاهلا الحقائق التاريخية على أن يتمركز على نفسه هناك وأن يدافع عن وجوده المنفصل بشتى السبل .

وقد يقال ان هذه مجرد أحلام وتهيؤات صهيونية لم يقدر لهــا أن تتحول الى واقع ، وان الدولة الاسرائيلية فى رؤيتها لنفســها تختلف عن الحلم الصهيونى . ولكننا نجد الأمر عكس ذلك ، فاسحق رابين بعد حرب ٦٧ شبه الاسرائيليين **بالصليبيين** الذين أتوا من الغرب ليحرروا الأرض المقدسة وعاشوا فيها تحاصرهم الحضارة العربية الاسلامية . وحينما حاول أبا ايبان فى كتابه

---

(١) نايز صايغ ، « صهيونية المستر ايبان غير الاستعمارية » **مدل ايست فورم** (عدد ٤٢ سنة ١٩٦٦) ٥٠ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) بن هرمان ، « الصهيونية والاسد » فى كتاب **الصهيونية واسرائيل والعرب** تحرير هال دريبر (بركلى كاليفورنيا : اندبندنت سوشيالست بوكس ١٩٦٧) ٣١.

صوت اسرائيل أن يحدد طبيعة العلاقة المثلى التى يجب أن تنشأ بين اسرائيل وجيرانها قال : « ان هدفنا يجب الا يكون **الاندماج** (مع الدول المجاورة) ، بل على العكس يجب أن نتحاشى مثل هذا الاندماج . ان من أكبر مصادر قلقنا حين نتفكر فى وضعنا الحضارى هو الخوف من أن ازدياد المهاجرين من البلاد الشرقية قد يضطر اسرائيل الى أن تساوى بين مستواها الحضارى ومستوى البلاد المجاورة » . ثم يستطرد ايبان قائلا : « اننا بعيدون كل البعد عن أن نعتبر المهاجرين من البلاد الشرقية وسيلة للاندماج مع البلاد العربية ، اننا يجب أن نجعل المهاجرين يتشربوا الروح الغربية بدلا من أن ندعهم يدفعوا بنا الى « استشراق » غير طبيعى » . ويستخدم ايبان صورة **اليانكى** فى أمريكا اللاتينية ليصف العلاقة بين اسرائيل والبلاد العربية : « أن ما نطمح له هو أن تكون العلاقة بيننا وبين جيراننا ليست مثل علاقة سوريا بلبنان ، بل مثل علاقة الولايات المتحدة بأمريكا اللاتينية » (١) .

هذا الاصرار على الوجود الميكانيكى المنفصل هو الذى أدى فى نهاية الأمر الى التقاء المصالح الامبريالية برؤى العهد القديم ! فالامبريالية العالمية (خاصة بعد تقرير بانرمان الذى نبه الى الامكانيات الثورية للعالم العربى) كانت فى شديد الحاجة لدولة تضم جماعة من المستوطنين الأوروبيين الذين لا تربطهم أى روابط اقتصادية أو حضارية بالمنطقة ليقوموا بحراسة المصالح الامبريالية والسهر عليها ، وقد وجد الاستعمار العالمى فى الصهيونية وجماهيرها ضالته المنشودة . وبهذا يكون المواطن الاسرائيلى الذى عبر عن سعادته البالغة «لكونه **جسما غريبا فى الشرق الأوسط** » (٢)قد حقق الرؤى الصهيونية اللاتاريخية التى ترى اليهودى كمراقب ازلى خارج التاريخ ، وخدم فى الوقت ذاته المصالح الامبريالية التى تحتاج لجندى ماهر ، معزول عن الواقع الحى ، يتحرك بمهارة ضد كل القوى الثورية ليوقف مسار التاريخ فى المنطقة

---

(١) أبا ايبان ، **صوت اسرائيل** (نيويورك ١٩٥٧) ٦٧ .
(٢) **نيوزويك** ١٣ مايو ١٩٦٨ .

وهناك لفيف من الزعماء الصهاينة كان واعيا تمام الوعي بهـذا التلاقي بين الغيبية الصهيونية والمصالح الامبريالية ، فجابوتنسكي في خطابه الذي اقتبسنا منه آنفا يقول : « لا يوجد ما يدعو الى أن اتحدث باسهاب عن هذه البديهية المعروفة ، الا وهي أهمية فلسطين بالنسبة للمصالح الامبريالية البريطانية ، كل ما ينبغي على اضافته هو أن هذه المصالح لن تكتسب أي شرعية الا بشرط واحد أساسي أن تتحول فلسطين الى **دولة غير عربية** » (١) . وبعد أن ذكر جابوتنسكي هذه « البديهية » حاول أن يبين لنـا الأسـباب التي بنى عليها موقفه : « أن العيب الرئيسي في كل « قلاع » انجلترا في البحـر الأبيض المتوسط هو انها كلها (باستثناء مالطة) تقطنها شعوب مركز جاذبيتها القومية توجد في مكان بعيد آخر ، ولذلك فهي تتحرك تلقائيا وبشكل لا يمكن ايقافه نحو هذا المركز » ، ثم يسـتطرد جابوتنسكي ليشرح ماذا يعني : « ان انجلترا تحكم هذه الشعوب رغم ارادتها ولذا فقبضتها عليها غير ثابتة ... وحتما سيجيء اليوم الذي سيعود فيه جبل طارق لأسبانيا وقبرص لليونان ، بل أن مصر قد هربت بالفعل ، اذ أن مصر عربية ، سياسيا ان لم يكن عنصريا أيضـا » . ويستنتج جابوتنسـكي من ذلك : « أن فلسـطين أن بقيت عربية فانها ستسير في مسارها العربي المقدر لهـا ـــ اتحاد كل الدول العربية والتخلص من كل النفوذ الأوروبي . ولكن اذ كانت هناك أغلبية يهودية في فلسطين ، واذا كانت هناك دولة يهودية في فلسطين ، محاطة من جميع الجهات ببلاد عربية فانها للحفاظ على نفسها ستبحث دائما عن قوة امبريالية ـــ غير عربية وغير اسلامية ـــ لتستمد منها العون » . أن جابوتنسكي كان يعرف أن الدولة الصهيونية بانشائها على أرض عربية كان مقدر لهـا أن تصبح دولة مطاردة منبوذة ذات وجود ميكانيكي ، لا علاقة لهـا بالحركة التاريخية العامة في المنطقة ، ولكنه يجد ذلك « أساسا الهيا لتحالف دائم بين انجلترا وفلسطين يهودية (ويهودية فقط) » ، واصراره على فلسطين اليهودية مرده انهـا تتمتع بالمواصفات التي يطلبها الامبرياليون . ان هذا أساس الهي حقا ، حيث يقوم الصهاينة بتوريد الأنبيـاء المحاربين ، ويقوم الامبرياليـون بالتشجيع والتمويل بل والحماية

---

(١) بن هرمان ، نفس الصفحة .

(أنظر أيضا : « ١١ — الانعتاق الذاتى عن طريق الاعتماد على الجوييم ») .

ولكن هذا لا يعنى ان الوجود الميكانيكى يظل على حالته الى نهاية الدهر ، فالتراكم الـكمى قد يحول الواقعة الامبريقية الى واقعة تاريخية . ويجب أن نتذكر فى هذا المضمار أن الوجود العربى فى مصر فى مراحله الأولى كان ولا شك وجودا ميكانيكيا ، الا أن طابعه العام تغير بالتدريج حتى أصبح بعد حين وجودا عضويا ، وأصبحت مصر بلدا عربيا . (وان كان هذا قياسا مع الفارق ، فالعرب لم يأتوا لمصر حاملين رسالة أزلية تستبعد غير العرب ، كما أن ابادة السكان المحليين أو طردهم لم يكن جزءا من مخططهم ، فقد جاءوا لمصر ليستوطنوا فيها وليتعاملوا مع أهلها ولينشروا بينهم الاسلام وقيمهم الحضارية الأخرى) .

٥ — ديالكتيك الصهيونية الزائف وثبات الطلقات

بعد ان عرضنا للموقف الصهيونى من اليهـود كأمة مقدسة وللتاريخ اليهودى كتعبير عن هذه القداسة ، سنحاول أن نعرض فى الفصول القادمة لبعض السمات الأخرى الفرعية لبنية الصيونية ، وأولى هذه السمات هو ما أسميه بديالكتيك الصهيونية الزائف . نادت الصهيونية بحل المشكلة اليهودية عن طريق تهجير « شعب بلا أرض الى أرض بلا شعب » ، ويتصور الصهاينة أنهم بهذا نجحوا فى تقديم رؤية جديدة للواقع تجمع بين الشيء ونقيضه وتتخطاهما . انها رؤية فى تصورهم تتخطى كلا من معاداة السامية التى ترفض اليهود رفضا كاملا وتحاول تصفيتهم حضاريا بل وجسديا ، والاندماجية الليبرالية التى تحاول القضـاء عليهم بطريقـة انسانية . تدعى الصهيونية أنها تقدم الحل النموذجى المركب ، فهى ستخلص العالم من اليهود (وبذا ترضى المعادين للسامية) عن طريق تجميع اليهود فى دولة يهودية مؤكدة بذلك كيانهم وتراثهم اليهودين (الأمر الذى يثلج صدور المؤمنين) ، ولكن الدولة اليهـودية ستكون دولة قومية

علمانية لا تختلف عن الدول الأخرى وبذا يمكنها أن « تندمج » فى المجتمع الدولى (الأمر الذى يرضى الليبراليين العلمانيين) (١) .

وهذا البرنامج السياسى الذى يرضى جميع الأطراف قد شكل أساسا متينا للتحالف بين القطاعين الأساسين للأقليات اليهودية فى العالم الا وهما قطاع اليهود المتدينين فى الشرق الذين يودون الحفاظ على يهوديتهم ، وقطاع اليهود الليبراليين فى الغرب الذين يودون الابقاء على اندماجهم الذى تهدده الهجرة من الشرق ، كما أن هذا البرنامج قد جعل من الممكن أن تتحالف جماهير البورجوازية الصغيرة اليهودية مع العناصر اليهودية الاشتراكية الثورية (ولا تزال هذه هى احدى السمات الأساسية للحياة السياسية فى اسرائيل) .

ولكن البرنامج السياسى الذى يرضى « جميع » الأطراف ويرضى العدو والصديق بغض النظر عن اتجاهاتهم السياسية أو حتى نواياهم الانسانية لابد وأن يكون برنامجا سحريا قادرا على حل التناقضات. ولكن البرنامج الصهيونى لا سحر له ولا قداسة ، فقد حل الصهاينة وأتباعهم كل التناقضات بتجاهلها وذلك باتخاذ موقف هيجيلى مثالى من الواقع والتاريخ . والرؤية الهيجيلية المثالية للتاريخ تفترض أن ثمة فكرة مطلقة لا وجود مادى أو نسبى لها تحرك كل الظواهر ، وتكون بمثابة المحرك الأول (والأخير) للتاريخ ، وهى تسبغ عليه معنى عقلانيا وتبين « الحقيقى » من الزائف . ولأن « الحقيقى » الوحيد هو النهائى المطلق فان هذه الرؤية الهيجيلية تفترض أن كل المتناقضات فى جوهرها « غير حقيقية » لانها مهما كان عمقها فما هى الا حلقة فى سلسلة ضخمة تؤدى الى هذا المطلق الخالى من التناقض : الفكرة المطلقة أو الدولة البروسية أو اليهودية !

---

(١) فكرة الدولة اليهودية ٦٦ — ٧٦ .

والحيلة الهيجيلية المثالية لحل المشاكل تتلخص فى رؤية التاريخ من وجهةنظر نهايته ، واذا مافعل المرء ذلك فانه لن يرى الا الفكرة المطلقة الثابتة متجسدة فى كل التفاصيل المتغيرة ، ولكنه بعد قليل لن يرى الا « الفكرة » نفسها وينسى التفاصيل لان التفاصيل المحسوسة ستصبح تجسدات متساوية فى الدرجة والقيمة ، ليس فيها ما يميز الواحدة عن الأخرى . وحيث أن هذه الفكرة المطلقة غير محسوسة أو معروفة (الا لله وحده عز وجل) ، فانها تتحول الى فكرة ذاتية يدعى الزعيم النبى (هتلر أو بن جوريون) معرفتها ، ويحاول قصارى جهده فرضها على الواقع المحسوس غير الحقيقى ! وهكذا ينغلق الجدل الهيجلى على نفسه أو ينفتح على المطلق الذاتى وهذا ضرب من الانغلاق هو الآخر (على عكس الجدل الماركسى المنفتح على الواقع التاريخى المتطور الحى ، ولذلك فهو جدل لا يمكنه أن يدور فى حلقات مفرغة لأن الموضوع متغير ولأن الذات الخلاقة تتغير هى الأخرى بتفاعلها مع الموضوع الحى ، فتسمو عليه وتتخطاه . فمن وجهة نظر ماركسية انسانية يجب الا ننظر الى الواقع بميكرسكوب النسبى فنغرق فى التفاصيل لا ولا من خلال تلسكوب المطلق فلا نرى الا فكرة لا ملامح لها ولا قسمات) .

وقد أثرت الرؤية الهيجيلية المثالية فى الفكر اليهودى الحديث وفى الفكر الصهيونى بشكل خاص (وذلك لتماثل بنية الهيجيلية المثالية ببنية وحدة الوجود) ، فنحمان كرو كمال **Nahman Krochmal** (١٧٨٥ — ١٨٤٠) ، وهو من أوائل فلاسفة القومية اليهودية ، لم يجد سوى الجدل الهيجلى ليبنى عليه نظريته فى التاريخ اليهودى. ففى كتابه **دليل للحائرين هذه الأيام** يعرض نظريته القائلة بأن الأمة اليهودية ليست مثل بقية الأمم ، فكل الأمم تمر بدورة نمو ثم نضوج ثم اضمحلال ثم موت ، أما اليهود فلا يمرون بمثل هذه الدورة اذ أن الحياة تدب فيهم مرة أخرى ويبداون دورة أخرى . ويفسر كروكمال مقدرة اليهود على التغلب على الموت والاضمحلال بأن اليهودية روح سرمدية تعرف سر تجدد الحياة ذاتيا ، فبينما سيطر على الأمم الأخرى وجودها الجسدى أو أرضها القومية ، سيطر على اليهود « روح الجماعة » وحدها . بل أن كروكمال يرى أن « روح » هيجل « المطلقة » ليست سوى اله اسرائيل الذى يرتبط

به الشعب الاسرائيلى برباط وثيق ، وتحقيق ارادة هذا الاله أو الروح المطلق هو للشعب اليهودى بمثابة المثل الأعلى بل والمصير المحتوم(١) . وبذا تصبح الأمــة اليهودية ليست مجــرد ظاهرة حضارية منعزلة عن كل الحضارات القومية الأخرى ، بل على العكس تصبح وثيقة الصلة بها وتحتويها كلها فى وحدة عضوية منسجمة . ونحمان كروكمال بهيجليته العضوية المثالية لم يبتعد كثيرا عن الفكر اليهودى القديم بتصوره المسيحانى للتاريخ وبرؤيته للشعب المختار فى مركز التاريخ .

هذه الهيجلية تتضح أيضا فى فلسفة المفكر الصهيونى موسى هس فى تحليله لمــا يسميه « بسبت » التاريخ ، والسبت هو يوم التعبد عنداليهود ، فبعد أن خلق الله الطبيعة احتفل « بسبته » الطبيعى ثم بدأ التاريخ . خلقت الطبيعة كاملة ثابتة ، أما الانسان فانه لايزال أمامه مجال للتطور ، وهو تطور سيصل الى قمته ونهايته فى « سبت » التاريخ وذلك بقدوم المسيح المنتظر . فى هذه النقطة فى الزمان ستنغلق الدائرة ويتحقق المطلق « ويصل التاريخ كالطبيعة الى حقبة كماله المتناسق » (٣٤) ، (التى هى بالطبع « العصر المسيحانى ») . وهس يستنتج من ذلك أن ثمة قانونا واحــدا ازليا يحكم عالم الطبيعة وعالم التــاريخ على حد ســواء ، ان عالم التاريخ مثل عالم الطبيعة له نهــاية وذروة يصل اليهــا ، وأى اختلاف قد يبدو لنا بين قوانين التاريخ والطبيعة ان هو الا نتاج مفاهيم ذاتية وناجم عن عــدم الاحاطة « بالقوانين العظيمة الشاملة المقدسة » (٣٤ ــ ٣٥) ، وعن تصور خاطىء لتطور الانسانية التاريخى على أنه مجرد « تقدم » لا نهاية له ولا تحكمه قوانين ولا تحده حدود (٣٥) . وهس هنــا يؤكد أهمية تصور النهاية المسيحانية للتاريخ ، وهذا هو جــوهر الرؤية الهيجلية للتاريخ ، على عكس التصور المــاركسي الذى يؤمن بوجود قوانين تحكم مسار التاريخ الا أنه لا يضع أية نهاية ثابتة له ، لأن أى مجتمع انسانى بما فى ذلك المجتمع الشيوعى لابد وأن يتخطى نفسه ،

---

(١) نفس المرجع ٦٨ و **تاريخ اليهود** ٥٢ ــ ٥٢٣ .

بل ان ماركس رفض التنبؤ بصورة مجتمع المستقبل حتى لا يقع فى هوة التصورات المسيحانية المثالية .

والصهاينة فى رؤيتهم للتاريخ وللواقع المادى لا يرون شيئا سوى فكرتهم الثابتة الخاصة بالعودة الى أرض الميعاد لتأسيس الدولة اليهودية فيها ، وما تاريخ اليهود الا تعبير عن الرغبة العارمة فى العودة . ان التاريخ اليهودى تعبير عن هذا المطلق الذى لا يقبل النقاش (لأن الحق فى العودة يستند اما الى وعد أسطورى تلقاه اليهود فى أول الأيام أو الى رغبة سيكولوجية تعتمل فى نفوسهم ، وكلا الوعد الأسطورى والرغبة السيكولوجية حينما يتحولان الى برنامج سياسى ، لا يمكن مناقشتهما بشكل عقلانى) ، لذلك حينما يشير اليهود الى حقوقهم « التاريخية » أو الى « حدود اسرائيل التاريخية » يجب أن نضع فى اعتبارنا دائما انهم لا يشيرون الى أى واقع تاريخى محسوس ، وانما يشيرون الى تصوراتهم المسيحانية بخصوص هذه الحدود ، فالحقوق والحدود « التاريخية » هى حقوق وحدود مقدسة ومطلقة أو حقوق وحدود « ذاتية » لا يمكن لأحد تقريرها أو التعرف عليها سوى الصهاينة . ولأن الصهاينة لا ينظرون الى الواقع الا من خلال تلسكوب المطلق الصهيونى كان من اليسير عليهم ان يتجاهلوا النسبى والتاريخى والعينى وان يتقبلوا بكل سهولة شعار « أرض بلا شعب وشعب بلا أرض » ، لأنه شعار يتسم بالاتساق الهندسى الدائرى المجرد .هذا الشعار الذى لا يزال بعض الصهاينة يرددونه حتى الآن يتجاهل عناصر تاريخية محسوسة عديدة ، فهو أولا قد حول فلسطين الى مكان غير مأهول بالسكان وحكم على الشعب الفلسطينى بالزوال ، كما أنه حول الأقليات اليهودية فى الدياسبورا الى مفهوم مجرد يسمى « بالشعب اليهودى » وحكم عليه بأنه فى حالة دائمة من البؤس الشديد وفى حالة تطلع ورغبة دائمين للعودة لأرض الميعاد . هذا على الرغم من أن الهجرة اليهودية فى القرن التاسع عشر كانت متجهة من روسيا وشرق أوروبا الى العالم الجديد ، وعلى الرغم من أن حوالى نصف يهود العالم الآن يعيشون فى أرض الميعاد الأمريكية ولا يريدون التزحزح منها .

لو لم يؤمن الصهاينة ايمانا أعمى بشعاراتهم لتحدى الواقع التاريخى الحى والمتنوع فى فلسطين والدياسبورا تناسق جدلهم الهندسى ، ولعل قصة ماكس نوردو ـــ الزعيم الصهيونى وصديق هرتزل ـــ الذى لم يسمع قط عن وجود الفلسطينيين الا فى المؤتمر الصهيونى الأول ، والذى اندفع لهرتزل معلنا استنكاره لعــدم اخباره بهذه الحقيقة (الجوهرية أو الفرعية ؟) ـــ أقول لعل هذه القصة خير دليل على زيف جدلية الصهيونية ومثاليتها ، لأن الجدل الحقيقى هو الذى يأخذ كل العناصر الأساسية فى الاعتبار ويرى تفاعلها الحى داخل اطار تاريخى . لقد حولت الصهيونية التاريخ اليهودى والواقع الذى تتعامل معه بكل نتوئه الى ما يشبه القطار الذى يسير على قضبان مستوية من الشعارات والاساطير البسيطة الى محطة الخلاص . فليلينبلوم « لا يرى أمامه الا طريقا مستقيما مؤكدا يقود الى الخلاص » (٧٠) ، أما هرتزل فيشبه الحركة الصهيونية بعد تنظيمها بالقاطرة الكبيرة التى تحمــل المسافرين والبضائع (١٠٢) الى محطة أرض الميعــاد بالطبع . ومن المناسب ان نذكر أن هرتزل طيب خاطر نوردو وأخبره أن كل شيء سيسوى فيما بعد (كيف ؟) ، وان نوردو لم يقتله الندم بسبب جهله المطبق ، بل استمر صهيونيا يحتمى بتلسكوب المطلق حتى يوم وفاته (النهاية السعيدة دائما !) . ويبدو أن لويس دمبيتز برانديس Louis Dembitz Brandeis (١٨٥٦ ـــ ١٩٤١) القاضى الأمريكى والزعيم الصهيونى قد بلغت به الليبرالية وطيبة القلب الى درجة أنه رأى « النهاية السعيدة » متحققة فى أرض الميعاد عام ١٩١٥ ، ففى مقاله « المسألة اليهودية وكيفية حلها » يؤكد لنا بكل براءة انه « ليس هناك مجرمون يهود فى المستعمرات اليهودية فى فلسطين لأن كل واحد منهم كبيرا كان أم صغيرا يشعر بمجد شعبه وبواجبه لحمل مثله العليا . ان يهود فلسطين الجدد ينشئون علماء بدلا من مجرمين » (٣٩١) . فى أركاديا الصهيونية ، فى أرض اللبن والعسل ، يجلس الرعاة مع الراعيات يعزفون على النــاى بينما ترعى الحملان بنفسها . لقــد ضغط المثل الأعلى على الجميع فتجسد الآن وهنا ! (وان كان برانديز لا ينسى بطبيعة الحال أن يذكر الرعاة المسلحين الذين يقضون الليل يحرسون أركاديا المسلحة ضد جماعات « قطاع الطرق ومسببى أعمــال الشغب » التى تعكر صفو الأحلام الرعوية الهيجيلية !) .

والنظر من خلال تلسكوب المطلق هو الحيلة الهيجيلية التى استخدمهــا بوبر لتبرير الاســـتيلاء الصـــهيونى على الأرض الفلسطينية (٣٤٠) . فحينما صرح غاندى بأن « فلسطين هى ملك العرب » كتب له بوبر خطابا بدأه بالابتعاد عن الواقع المحسوس عن طريق العودة الى الماضى السحيق حينما استولى العرب على هذه الأرض عن طريق الغزو ، ثم تساءل بوبر عما اذا كان غاندى يقصد أن الاستيطان عن طريق الغزو يبرر حق ملكية فلسطين . وبوبر بذلك يتناسى الوجــود التاريخى المحسوس للفلسطينيين الذى لا يمكن بأية حال مساواته بالوجود الصهيونى فى فلسطين آنذاك . ثم يركز بوبر التلسكوب مرة أخرى ويبتعد عن المــاضى السحيق الى المطلق ويقرر أنه ليس من حق أى انسان أن يقول « هذه الأرض ملكى » فالأرض المفتوحة ، فى رأية الصوفى ، « قد أعيرت الى الفاتح الذى أقام عليها وأن الله بانتظار ما سيفعل بها » (٣٤١) .

أن هذه الرؤية للتاريخ قد ساوت بين الوجود العربى والوجود الصيهونى فى فلســطين ، فمن وجهة نظر المطلق تتساوى كل الأشياء ، بل أن أى وجود انسانى (عربيا كان أو صهيونيا) ألغى تماما ، وأصبح التاريخ تجسيدا لارادة اله اسرائيل الهيجلى الذى يفعل بالأرض مايشاء ، وأنبياء الصهيونية هم أقدر الناس بطبيعة الحال على تفسير هذه الارادة ، وما علينا نحن الا أن نتقبل تفسيرهم حتى ولو كان يتناقض مع وجودنا الفعلى والتاريخى . (وقد سلط أيخمان تلسكوب المطلق على يهود أوربا فذابوا واختفوا ، وحققت الدولة النازية اتساقها وانسجامها الآرى الكامل الذى لا تشوبه شائبة يهودية واحدة . لقد أصبح التاريخ فى كمال الطبيعة ، كلا عضويا دائريا ثابتا يبعث على الفزع والغثيان) .

وانشغال الصهاينة بالمطلق وبالأزلية دون التفاصيل يفسر لم تزخر كتاباتهم برموز الثبات . فهناك بطبيعة الحال جبل صهيون ذاته الذى سميت الحركة باسمه ، وهو رمز السكون والتمركز . وهناك الارتباط الصهيونى الصلب بأرض الميعاد « صرة الأرض » ،

كما يشير اعلان استقلال الدولة اليهودية الى «صخرة اسرائيل»(١) التى يقف فى وسطها جسم صلب آخر : حائط المبكى . واليهود يصابون بمرض الثبات هذا فى كتابات الصهاينة فهم يقفون داخل التاريخ « كحجر الزاوية » على حد قول بوبر (٣٣٣) ، ويشير هس الى « النواة الحية داخل الشعب » (٢٥) . أما بياليك فيتحدث عن الجامعة العبرية على أنها « أول وتد فى عملية تشييد القدس العالية ثبت اليوم وللأبد » (١٧٣) .

وبيرد يشفسكى الرومانتيكى المتمرد على عناصر الموت فى التراث اليهودى يرفض الثبات ويدعو اليهود ألا يكونوا بعد الآن « الواحا يكتب عليها الكتب » ، ولكنه حينما يصف حياة اليهود المستقبلة كما يتخيلها فانه يستخدم صورة أخرى للثبات لأن اليهود بعد عودتهم « سيحيون ويقفون فى ثبات » (١٨٤) .

والى جانب رموز الثبات هذه ثمة مجموعة من الاشارات التى قد توحى بالحركة والحياة وهى صور الينبوع والمنارة والمشعل ، فسيركين يقرر أن اليهود كانوا حملة « مشعل الليبرالية » (٢٢٥)، وغوردون يتحدث عن فلسطين على أنها « ينبوع » حياة اليهود و « البقعة المركزية » فيها (٢٦٦) ، ويشير الحاخام كوك الى ينبوع الحياة المقدسة فى أرض اسرائيل (٣٠٣) والى الينبوع الأزلى للروح اليهودية (٢٩٥) .

والرموز السابقة رغم أنها قد توحى بالحركة الا أنها فى واقع الأمر رموز ثبات ، ولكنها تختلف عن سابقتها فى أنها تدل على عدم التحدد فى الوقت ذاته . فالينبوع يعطى ماءه دون أن يتغير ، تماما كالمشعل . ولكن الى جانب هذا يتسم الينبوع والمشعل بأنهما لا حدود لهما ، لأننا لا يمكننا أن نتعرف على الحدود التى تفصل بين المشعل وضوئه أو بين الينبوع ومائه ، كما أن مياة الينبوع تفيض فتغطى ما يحيطها ، والمشعل يشع ضوؤه فيغمر ما حوله .

---

(١) قراءات فى الصراع العربى الاسرائيلى ١٢٥ .

ولكن من أكثر الرموز تواترا فى الكتابات الصهيونية تلك التى تعبر عن رغبة اليهود فى **الاحتماء** بالدائرة المغلقة ، مثل الهيكل الذى يحتمى به اليهود روحيا . فأرض اسرائيل هى هيكل يحتمى به جوهر الأمة الروحى (٢٠٦) والدين اليهودى هو الآخر هيكل لليهود (٢٠٩) أنه كالجدار المنيع يحمى اليهود ، وفلسطين كالمرفأ الذى انطلقت منه السفن (اليهودية) ويجب أن تعود اليه حتى لا تمسها الأمواج مرة أخرى (٣٦٨) . ويشبه شيختر اليهودية بعد البعث القومى ببرج القوة والوحدة الذى سيحمى المهاجرين لأرض الميعاد ويهود الدياسبورا (٣٧٧) ، ويشبه بياليك المدارس الدينية اليهودية بالقلاع التى يلجأ اليها اليهود كلما اجتاحتهم العواصف والأنواء (١٧٤) وبالطبع نجد ان مخبأ المخابىء وكنز أمة الروح هو التوراة (٢٩٨) .

وترى الصهيونية أنه لابد من زيادة « الموانع الذاتية والقيود » حتى يحتفظ اليهود بتميزهم وانفراديتهم ، وكذلك يجب الحفاظ على جميع الحدود التى تفصل بين اليهود والجوييم (٢١١) . وقد وصلت هذه الانغلاقية الى قمتها حينما دعت المجلة اليهودية الألمانية « جوديش رندشاو » كل اليهود أن « يلبسوا الشارة الصفراء بكل فخر » وذلك فى عددها الصادر يوم أول ابريل ١٩٣٣ بعد أن بدأت المقاطعة النازية ضد اليهود ، وقد طلبت الصحيفة من اليهود ارتداء الشارة قبل أن يفعل النازيون ذلك بستة أعوام(١). ومن المعروف أنه كان من واجب كل يهودى ارتداء هذه الشارة اذا خرج من الجتو حتى يتسنى للآخرين التعرف عليه. ويعلق المفكر الصهيونى الأمريكى لودفيج ليفسون Ludwig Lewisohn (١٨٨٣ — ١٩٥٥) على هذه الواقعة بقوله : « يجب علينا أن نفعل ذلك دائما وفى كل مكان بل وأن نفعل أكثر من ذلك . أن

---

(١) حنا أرنت ، **ايخمان فى أورشاليم : تقرير عن تفاهة الشر** (نيويورك : ذى فايكينج برس ١٩٦٤) ٥٩ .

الشارة الصفراء يجب أن تخترق ثنايا الثوب حيث حاكتها يد معادية عليه حتى تصل الى القلب وتتحـد معه وأن تملأه كلية وبشكل **مطلق** لدرجة لا يستطيع أحد معها التفريق بين الشارة الصفراء وقلب اليهودى » (٣٦٢) . أن صور الثبات والتمركز هى تعبير عن وجدان الصهاينة الذى يقبع فى دائرة الجدل المثالى المزيف رافضا مجابهة التاريخ والواقع .

٦ ــ التجريبية الانتقائية

وديالكتيك الصهيونية الزائف هو نتيجة مباشرة لمحاولة الصهاينة تحويل التاريخ الى أسطورة والواقع الى مثال (كما فعل اليهود القدامى فى تاريخهم) . ويستند هذا الديالكتيك الى ما يمكن تسميته بالتجريبية الانتقائية ، فالمفكر الصيهونى عـادة ما يعطى قارئه احساسا بأنه دائم الرجوع الى الواقع ، وبأنه خلص الى نتائجه بعد تمحيص دقيق لكل عناصره ، ولكنه فى واقع الأمر يقترب من الواقع مسلحا بكل غيبياته الصهيونية المثالية ليبحث عن العناصر التى تدعم رؤيته وينتقيهـا متجاهلا ما عداها . ولهـذا السبب لا تؤدى عملية دراسة الواقع أو التاريخ الى أى تعمق انسانى وانما ينتج عنها تحسين فى الأساليب الدعائية (كما هو الحال فى «علم» الآثار الاسرائيلى الذى يستخدم الاكتشافات الأثرية الاسرائيلية التى تتم بشكل « علمى » لتبرير الرؤى الصهيونية الصوفية) . والتجريبية الانتقائية هى وسيلة الغيبية الصيهونية لاضفاء طابع العلمانية على نفسها ، فالصهيونى العلمـانى مضطر للجوء الى المنهج التجريبى لأنه كما يزعم علمى ، ولأنه لابد له من أن يتعامل مع الواقع رغم رفضـه لهذا الواقع على المستوى الفكرى . ولكن الصهيونى لا يملك بأية حال أن يسلم بوجود كل عناصر الواقع المختلفة (بما فى ذلك عروبة فلسطين وتنوع يهود الدياسبورا)

---

(١) نفس الصـفحة .

لأن هذا يناقض التبسيطات الأسطورية التى يؤمن بها ايمانا صوفيا أعمى . والانتقائية هى وسيلته المثالية لموازنة وضبط التجريبية حتى لا تصل به هذه التجريبية الى درجـــة تجعل الواقع المركب يقتحم الأسطورة البسيطة .

ويجب أن نشير الى أن المفكرين الصهاينة (بما فى ذلك أحاد هعام) هم نتاج المجتمع الأوروبى العلمـــانى التجريبى ، ولذلك كان من الطبيعى أن يترك المنطق التجريبى أثره عليهم ، ولكن هذا الأثر لا يظهر على شكل رؤية **علمية** ، بل يأخذ شكل رؤية **عملية** ، بمعنى أن استخدامهم للتجريب استخدام تاكتيـــكى محض لخدمة الرؤية الغيبية .

ولعل هذا المزيج الغريب من الرؤية العملية المتطرفة والصوفية المغالية هو ما يفسر احدى سمات تاريخ الحركة الصهيونية ، فالحركة الصهيونية كانت دائما لهـــا حد أدنى عملى معلن وموضع جدل شـــديد من جميع الأطراف ، وحد أقصى تحوطه الهـــالات الصوفية . أما الذى يقرر الحد الأدنى المعلن فهو قوة الصهيونية الذاتية ، والظروف العملية المحيطة بها ، وكلمـــا قلت الضغوط الخارجية وزادت القوة الذاتية الصهيونية كلما صعد الحد الأدنى محاولا عبثا الوصول الى الحد الأقصى ــ أقول عبثا لأن الحد الأقصى هو « المطلق » الذى لا تحده حدود . ولننظر مثلا الى الشعار القومى الدينى المقدس « من نهر مصر الى الفرات » ، حينما يكون بن جوريون فى حالة انتشـــار مسيحانى يصبح نهر « مصر » نهر النيل ذاته ، ولكن حينما يتساقط الفـــانتوم وتســـبب له أحلامه المسيحانية التوسعية بعض الصـــداع فان نهر مصر يصبح نهـــرا صغيرا فى العريش . وحيث أننا من البشر العاديين فلنترك مشكلة الحد الأقصى لأنبيـــاء الصهيونية القوميين ــ المقدسين ولنركز على الحد الأدنى فى حركته الدائبة فى الصعود الى « الأين » ؟ اذا مـــا نظرنا الى قرارات المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل عام ١٨٩٧ ، ثم الى قرارات مؤتمر بالتيمور عام ١٩٤٢ ، ثم الى قـــرارات المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين الذى عقـــد فى القدس عام ١٩٦٨ ميلادية أو عام ٥٧٣٨ يهودية ، وأخيرا الى قرارات المؤتمر الثامن والعشرين للاحظنا التباين الشاسع ولرأينا الحركة الصاعدة للحد

الأدنى . فقد صيغت قرارات المؤتمر الأول بشكل لا يزعج الجوييم (المطلوب عونهم فى ذلك الوقت) ولا يزعج حكومة سويسرا (التى عقد على أرضها المؤتمر) ولذلك طلب المؤتمر اقامة « وطن قومى » (وليس دولة) فى فلسطين يضمنه « القانون العام » (وليس الشعب اليهودى أو العنف) كما أن المؤتمر دعا الى تنظيم « الاقليات اليهودية » فى العالم على الا يسبب ذلك أى تعارض فى الولاءات ، كما قرر المؤتمر محاولة تقوية الوعى والعواطف اليهودية (١) . ولم تصبح فكرة الدولة اليهودية الشعار الرسمى للحركة الصهيونية الا عام ١٩٤٢ فى مؤتمر بالتيمور ، الا أن المؤتمرين الصهيونيين قد عبروا فى قرارات هذا المؤتمر « عن أملهم فى انتصار الانسانية والديمقرطية » وما شابه ، كما أنهم رحبوا بالتعاون مع العرب وبالبعث العربى اليهودى المشترك ، ورغم أن الغيبيات بدأت فى الظهور الا أن الصياغة كانت لا تزال الى حد كبير علمانية (٢) . أما قرارات المؤتمر السابع والعشرين الذى عقد بعد حرب يونيه وبعد ضم أرض عربية جعلت حدود الدولة اليهودية تقترب بعض الشىء من الحدود « التاريخية » وبعد توحيد القدس ، فاننا نجد أن الأهداف المعلنة قد قطعت شوطا كبيرا فى رحلتها الى المطلق ، فأهداف الصهيونية هى وحدة الشعب اليهودى ومركزية دولة اسرائيل فى حياته ، وجمع الشعب اليهودى فى وطنه التاريخى عن طريق الهجرة من جميع البلاد ، وتدعيم دولة اسرائيل القائمة « على مثل الأنبياء فى العدل والسلام » ، والمحافظة على أصالة الشعب اليهودى بتنمية التعليم اليهودى واللغة العبرية اليهودية والثقافة اليهودية (٣) . أى أن الدوائر الهندسية المتسقة والأساطير المعادية للتاريخ قد أصبحت برنامجا سياسيا معلنا ، ولا غرو فقد عقد المؤتمر فى منتصف « صرة » العالم . (أما قرارات المؤتمر الثامن والعشرين فهى استمرار لنفس النزعة الصوفية ، فقد أعلن المؤتمرون أن حق الشعب اليهودى فى أرض فلسطين غير

---

(١) قراءات ١١ — ١٢ .

(٢) نفس المرجع ٧٧ — ٧٩ .

(٣) المؤتمر الصهيونى السابع والعشرون ١٩٦٨ ، الجزء الثانى (القاهرة : مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بالاهرام ١٩٧١) ٩٨١ .

قابل للطعن ، وانه فى حرب الأيام الستة ضد المعتدون وحررت أرض الآباء واعتقت القدس وأصبحت مدينة واحدة)(١) .

وهكذا نرى أن انتصارات الدولة اليهودية لا تروى غليلها ، بل انهـا ستزيد من ضراوتها ، لأن الاحســاس بالحدود التاريخيــة الحقيقية الذى يفرضه الواقع الموضوعى يأخذ فى التــآكل ويحل محله الاحساس بالحدود « التاريخية » المقدسة الأزلية المطاطة ، حدود لا يعرف لها حدود « ولا يمكن أن تقاس بالكيلو مترات ... لأنه من الصعب استبعاد السامرة وجبل الخليل وغزة من رقعة الوطن اليهودى » على حد قول موشى ديان ، أحد كبار مفسرى التوراة فى العصر الحديث والجنرال فى الجيش الاسرائيلى(٢)! .

٧ ــ الصهيونية والتراث اليهودى

تتضح انتقائية الصهاينة التجريبية وديالكتيكهم المثالى الزائف فى رؤيتهم للتاريخ اليهودى وللتراث اليهودى فى المنفى ، فهم قد أعادوا كتابة التاريخ اليهودى مقسمين اياه الى قسمين ــ أولا : فترات مظلمة عديدة « غير حقيقية » فقدت فيها الذات اليهودية وعيهـا بنفسها (وخرجت من دائرة وحدة الوجود اليهودية) أو أخذت موقفا سلبيا فوقعت ضحية سهلة لصيادى الجوييم . ثانيا : فترات أخرى مضيئة قليلة ولكنها « حقيقية » تمركزت فيها الذات اليهودية على نفسها ودافع اليهود عن أنفسهم بضراوة وشراسة ، فترات لم يكن اليهودى ضحية سهلة ولم يكن مواطنا عاديا بل كان بطلا أو شهيدا (وحسب هذا الفهم تكون أكثر الفترات خصوبة فى حياة اليهود هى الأعوام القليلة التى قامت فيها دولة يهودية فى فلسطين، وتكون ثورة المكابيين ، الذين دافعوا عن الدائرة اليهــودية وعن الوجود الرسمى اليهودى فى فلسطين ، هى احدى القمم القليلة بل والنادرة لهذا التــاريخ ، وتكون الحركة الصهيونية هى التعبير الحقيقى عن هذا التمركز العدوانى الذى يجسد الروح اليهودية) .

---

(١) هآرتس ٣١ ــ ١ ــ ١٩٧٢ .
(٢) نيويورك تايمز ١١ يونية ١٩٦٧ فى اسرائيل الكبرى ٦٠٣ .

هذا الفهم للتاريخ اليهودى يلغيه كلية ويجرده من المعنى ، انه فهم يشبه من بعض الوجوه تصور بعض المتعصبين من المسلمين الذين يرون أن الأمة العربية والأمة الاسلامية فى حالة تدهور تدريجى ومستمر من أيام الخلفاء الراشدين ، وأن العصر الذهبى لأمتنا كان فى أيام حكم أبى بكر وعمر بن الخطاب ــ رضى الله عنهما ــ أما العصر البرنزى فكان فى عهد عثمان رضى الله عنه ، والعصر النحاسى هو عهد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أما بعد ذلك فقد أصبح تاريخنا ترابا فى تراب ، الا من ومضات مضيئة سرعان ما تخبو مثل عهد عمر بن عبد العزيز .

ولكن ما هى العلاقة المثلى التى يجب أن تنشأ فى العصر الحديث بين اليهودى وتاريخه ؟ أجاب المسكيليم على هذا السؤال بأنه ينبغى أن تكون علاقة اليهودى بتراثه وتاريخه علاقة نقدية مبنية على الايمان بمقدرة العقل والوعى على تبين الغث من الثمين والنافع من الضار ، ولذا يجب على اليهودى أن يتقبل من تراثه ما هو انسانى ومتفتح ويرفض ما يتنافى مع روح العصر الحديث (وهذا الموقف يشبه فى كثير من الوجوه موقف اليهودية الاصلاحية) . أما الصهاينة فانهم يطرحون المسألة بشكل مختلف تماما ، **فاليهودى هو تراثه** ، على حد قول جاكوب كلاتزكين الذى يرى أن « اليهودى الذى لا يرغب فى أن يظل منتميا للشعب اليهودى ، والذى يخون الميثاق ويهجر رفاقه فى معركتهم المشتركة من أجل الخلاص ، يكون بذلك قد تخلى عن تراثه الماضى وفصل نفسه عن شعبه . وللسبب نفسه ، فان المتهود لا يستطيع أن يصبح يهوديا بقبوله لقيمنا الدينية والروحية فقط ، انه لا يكتسب نصيبا فى المستقبل اليهودى الا اذا اشترك وقبل المساهمة فى الحياة اليهودية وانخرط عن ارادة تامة فى **تاريخها** » (٢٠٣) . فاليهودى هو تراثه وماضيه اذا رفض تراثه فانه يرفض يهوديته. هذا الموقف من التراث اليهودى (الذى يذكرنا بموقف اليهودية المحافظة) يتسم بالتبسيط الشديد لأنه يجعل من هذا التراث المصدر الأساسى والوحيد « للقومية » أو الهوية اليهودية .

ولكن اذا كان هذا التبسيط قد حل مشكلة الهوية اليهودية فانه قد خلق فى التو مشكلة أخرى للصهاينة ، فاليهودى

الصهيونى اذا تقبل التراث اليهودى (والتراث اليهودى هو اساسا تراث الدياسبورا) فانه بذلك يكون قد أفقد الصهيونية مبررها الفكرى الوحيد للوجود ، ألا وهو التمرد على المنفى كحقيقة أساسية فى حياة اليهود . وقد لخص بيرد يشفسكى هذا الموقف فى عبارته التالية : « عندما نقهر الماضى نكون قد قهرنا أنفسنا ، وعندما يتغلب الماضى نكون نحن وأبناؤنا وابناء أبنائنا من المقهورين ... الاكسير والسم يوجدان فى نفس المادة ، فمن يرينا الطريق ، ومن يمهد لنا الممر » (١٩١ — ١٩٢) .

أجاب المفكرون الصهيونيون على هذا التساؤل بتجاهله أو بتبسيط الموقف ، فبيرديشفسكى نفسه فى مقال له تحت عنوان « تدمير وتعمير » يعلن تمرده الكامل على التراث اليهودى قائلا : « ان قلوبنا ... تحس أن انبعاث اسرائيل يعتمد على ثورة ... الانسان أهم من تراث أجداده ... ان « العقيدة » التقليدية لم تعد كافية بالنسبة لنا » (١٨٣ — ١٨٤) . لقد بلغ من طغيان التراث على اليهودى أن التراث يشغل الآن المركز فى الحياة اليهودية « وأصبح اليهود ثانويين بالنسبة لليهودية » (١٨٣) . ولذلك ينادى بيرديشفسكى بوضع اسرائيل (الشعب) قبل التوراة (التراث) (١٨٤) . وكما نرى يضع بيرد يشفسكى اليهودى فى مقابل تراثه ويهوديته ولا يرى أن الواحد امتداد للآخر (كما فعل كلاتزكين) . ونفس النغمة المتمردة الرافضة نجدها فى كتابات جوزيف حاييم برنر Joseph Hayyim Brenner (١٨٨١—١٩٢١) الكاتب والروائى الصهيونى فهو يصف تاريخ اليهود فى المنفى بأنه « تاريخ ملىء بالاستشهاد » وبسخرية مريرة يصف الشعب اليهودى بالشعب الشهيد الذى قاسى كثيرا . وحينما يحاول برنر أن يصل الى جوهر الماضى اليهودى يكتشف أنه لم يكن « حربا طويلة من أجل حفظ قدسية [الدين اليهودى] ... أن تلك المئات من الأجيال لم تعش من أجل تقديس اسم الله ولكن من أجل خطط لانجاز اعمالهم التجارية التى يتطلبها منهم الجمهور العام من أجل فائدتهم . لقد كانوا يحيون لصيانة أموالهم وزيادة سعر الفائدة وليصونوا أنفسهم فى وجه التعميد » (١٩٧) .

ورغم أننا عرضنا لموقف كلاتزكين « كمدافع » عن التراث

ولموقف بيرديشفسكى وبرنر كرافضين له ، الا أننا لا يمكننا أن نقسم الصهاينة الى فريق من المؤيدين وآخر من الرافضين ، لأن الازدواجية توجد بشكل أو بآخر فى كتابات كل صهيونى على حدة .

ان موقف الصهاينة من التراث اليهودى يتسم بالتطرف فى حالة القبول وبالتطرف فى حالة الرفض ، لأنهم لم يصدروا عن تحليل موضوعى لشخصية اليهودى فى وجـودها التاريخى المحسوس كنتاج تختلط فيه حضارة الأغلبية التى يعيش بين ظهرانيها بتراثه الدينى والثقافى الخاص به ، وانما صدر الصهاينة عن تصور صوفى لليهودى على أنه داخل دائرة الوجود اليهودية لا علاقة له بحضارة الجوييم . وبالتالى لم تكن علاقتهم بالتراث اليهودى المتنوع علاقة حقيقية ، وانما كانت علاقة تاكتيكية مجردة تخضع لمتطلبات نظريتهم الأسطورية (تماما مثل مواجهتهم الواقع بتجريبيتهم الانتقائية) . فالصهيونية تستخدم المـاضى والتراث اليهـوديين لتبرر وجودها كحركة « قومية » ، ولكنهـا فى مجال تبريرها لبرنامجها الثورى ترفض هذا التراث ذاته وتعده تراثا طفيليا يعبر عن انحطاط الشعب اليهودى وترفض المـاضى اليهودى وتقدمه على أنه ماض مآس وفظائع واضطهاد لا حد لهم. ولم يقع سيمون دوبنوف المؤرخ اليهودى فى هذا التخبط الشديد بين القبول والرفض المتطرفين ، لأنه صدر عن تحليـل واقعى للتراث اليهـودى وللشخصية اليهـودية فى الدياسبورا ، وتقبلهما على أنهما واقع تاريخى له جوانبه السلبية والايجابية مثلهما فى ذلك مثل أى ظاهرة تاريخية أخرى .

٨ ـ الغيبيات العلمانية

ان موقف الصهاينة الضيق من التاريخ اليهودى والتاريخ عامة وموقفهم المتناقض من التراث نجم عن ولاء أيديولوجى ضيق لمثل أعلى يدور حول الأساطير والمفاهيم الأسطورية اليهودية القديمة . وكما أشرنا من قبل احتفظ الصهاينة ببنية هذه الأساطير الدينية بعد اعطائها لونا ومحتوى علمانيا ، ومن هنا كانت تسميتنا لهذه المفاهيم بالغيبيات العلمانية . وقد كان هذا الامر سهل المنال بالنسبة لهم بسبب ارتباط القومية اليهودية بالدين ، فالله حسب التصور اليهودى قد حل فى كل شىء حتى أصبح كل شىء مقدسا ، مقدسا الى درجة

أصبح من الممكن معها للملحدين والعلمانيين أن يستمروا فى تقديس هذه الأشياء بعد استبعاد الله مصدر كل قداسة .

(أ) أسطورة العـــودة

من أهم الأساطير اليهودية على الاطلاق اسطورة النفى والعودة والخلاص ، وقد عكس الموقف التقليدى من الأسطورة تعقد موقف اليهودى فى المنفى ، فحياته فى هذا المنفى — مثل حياة كل البشر — لم تكن خيرا خالصا ولا شرا خالصا ، بل هى خليط من الاثنين . ولهذا كان يعد النفى من وجهة النظر التقليدية عقابا نزل باليهود لعدم اخلاصهم لالههم ، ولكنه فى الوقت ذاته كان يعد احـــدى علامات تميزهم . والعودة أيضا كانت شيئا مرغوبا فيه ، ولكن يجب عدم محاولة تحقيقها لأنها كانت تعنى نهاية التاريخ ، والله وحـــده هو القادر على أن يضع نهاية للزمان . هذه السلبية التى شجبها الصهاينة هى فى الواقع تعبير عن محاولة اليهود التخلص من عبء المطلق الذى تلقيه على كاهلهم التصورات اليهودية القـــديمة ، ولذا فرغم الحديث المستمر عن العودة وعن اللقاء فى أورشليم فى العام المقبل ، نجد أن اليهود فضلوا دائما البقاء حيثما وجدوا ، ومن الثابت تاريخيا أن عدد اليهود الذى « عاد » بالفعل الى ارض الميعاد كان باستمرار محدودا . بل ان فى كتب اليهود الدينية دعوة صريحة لكل يهودى أن يبنى بيته حيثما وجد سواء فى الدياسبورا أو فى أرض الميعاد . لقد عرف أنبياء اليهود القدامى وعلماؤهم أن « المنفى » هو الحقيقة الأساسية فى الحياة اليهودية ، وما العودة الى أرض الميعاد سوى فكرة طوباوية يجب أن تحدها الحدود التاريخيـــة .

وقد وجد المسكيليم أن عليهم أن يتخذوا موقفا من اسطورة المنفى والعودة ، فنادوا بأن المنفى واقع مؤلم ومؤقت يجب أن يزول عن طريق الاندماج ، أما العودة الى صهيون فهى بالنسبة لهم كانت فكرة روحية تعادل فى قيمتها حلم الانسان بالعصر الذهبى .

ونادى الصهاينة ايضا بأن المنفى حقيقة مؤلمة يجب القضاء عليها بشكل فعلى ومباشر ، ولكنهم رفضوا الاندماج كحل وحـــولوا اسطورة العودة الى شعار قومى وعلمانى مؤكدين الجانب القومى لليهودية بعد فصله عن الجانب الدينى .

يقول هوارس ماير كالن Horace Mayer Kallen (١٨٨٣ —) الفيلسوف البرجماتي الألماني الأصل ، ان الصهيونية هي اعادة احياء فكرة القومية اليهودية على أساس مدني علماني مثل القوميات الأوربية (٣٩٦) ، كما يقرر أن الحياة اليهودية حياة قومية لا يشكل الدين سوى جزء منها . ويكرر كلاتزكين نفس الفكرة فى كتاباته ، فهو يعتقد أن التعريف الدينى لليهودى تعريف ذاتى ، وهو يرى أن الصهيونية حاولت أن تضع تعريفا علمانيا للذاتية اليهودية كما أنها حاولت أن « تنكر عن قصد أو عن غير قصد» ، أى مفهوم «لهذه الذاتية على أساس مقاييس روحية » (٢٠٥) . هذا لايعنى أن الصهيونية «تنكر القيم الروحية» ولكنها ترفض « ان ترفع هذه القيم الى مستوى المقياس الذى تعرف به الأمة « (٢٠٣) ولذا فاليهودى الذى ينكر « التعاليم اليهودية » لا يضع نفسه بذلك خارج الجماعة ، كما أن أى شخص غير يهودى يقبل التعاليم اليهودية لا يصبح بذلك يهوديا . « ليس من الضرورى أن يؤمن الفرد بالدين اليهودى أو بالنظرة الروحية العامة لليهود لكى يصبح جزءا من الأمة » (٢٠٢) . ويشارك سمولنسكين كلاتزكين فى موقفه : « اذا كان الشعور القومى هو أساس وجودنا فليس هناك أى داع للاختلاف على قوانين وعادات دينية سخيفة ... مهما كانت خطايا اليهودى ضد دينه فهى لا تهم لأن كل يهودى ينتمى الى شعبه طالما أنه لا يخونه » (٤٥) . اذا كانت اليهودية مجرد قومية تصبح العودة مجرد شعار قومى لا علاقة له بالشعارات الدينية الأخرى ، وهذا ما يراه سمولنسكين الذى يفصل بين العودة وأسطورة « المسيح المخلص » ، فهو يطمئن أولئك الذين يخشون الذهاب الى الأرض المقدسة — على أساس أن عودتهم تعد من وجهة النظر الدينية تجديفا — قائلا : ان الصهاينة لا ينوون أن يعجلوا قدوم « المسيح المنتظر » ، « نحن نسعى فقط لايجاد الرزق فى أرض نأمل منها أن توفر الراحة للذين يعملون عليها » (٥١) . ويفرق نوردو بين الصهيونية الحديثة والصهيونية القديمة الدينية قائلا : أن الصهيونية الحديثة « سياسية وليست كالأخرى دينية صوفية ، فهى غير مرتبطة بالرؤى المسيحانية ، ولا تتوقع العودة الى فلسطين بمعجزة انما ترغب فى اعداد طريق العودة بجهودها الخاصة » (١٣٧) . وبذا يمكن أن تتم العودة عن طريق المناورات السياسية أو العنف أو القهر أو أى طريقة علمانية أخرى.

ولكن اذا كانت الصهيونية بالفعل حركة علمانية ــ كما تصف نفسها ــ واذا كان الغرض من انشاء الدولة اليهودية هو انقاذ ملايين الضحايا من اليهود من اضطهاد الجوييم ، فلم فلسطين بالذات اذن ؟ الرد الصهيوني يتسم بالبساطة الشديدة : الصهيونية هي تجسيد لفكرة العودة الى فلسطين ، وهي تجسيد لا تتساءل الصهيونية عن طبيعته لان ارتباط اليهودي بأرض الميعاد هو ارتباط لا عقلاني لم تنقطع أواصره عبر التاريخ . (وهذه هي اللاعقلانية واللاأخلاقية التي تسم مقدســات اليهود القومية ، أي أننا عدنا للبنية الأسطورية مرة أخرى) . أن ارتبــاط اليهود بالأرض هو ارتباط صوفي لا يمكن للجوييم فهمه ، ، أو كما يقول الحاخام ابراهيم كوك : « ليست أرض اسرائيل شيئا منفصــلا عن روح الشعب اليهودي ، ... [انها] جزء من جوهر وجودنا القومي ومرتبطة بحياته ذاتها وبكيانه الداخلي ارتباطا عضويا ، والعقل البشري في أسمى مراتبه لا يستطيع أن يدرك معنى قدسية أرض اسرائيل الفريدة ، ولا يستطيع أن يدرك الحب الكامن في أعماق شعبنا نحو هذه الأرض ... أن ما تعنيه أرض اسرائيل يمكن فهمه فقط من خلال روح الرب المنتشرة في شعبنا ككل والتي تشع بتأثيرها على كل العواطف السليمة » (٢٩٤) . أن ارتباط اليهودي بأرضه الموعودة هو تعبير آخر عن تميزه على العالمين ، وعن رغبة اليهود كأمة روحية في أن « تكشف طبيعة الله للعالم » . ان اليهودي في الأرض المقدسة يصبح قادرا على « قبول الحقيقة الالهية ... هناك في تلك الأرض ، يــكون الذهن مهيئا لادراك معنى نور النبــوة والاستنارة باشعاع الروح القدس » (٢٩٥) .

وقد لا يوافق الصهيونيون « الليبراليون » مثل بن جوريون ، أو « الماركسيون » مثل بوروشوف على صياغة الحاخام كوك ، ولكنهم دون شك يؤمنون بالرابطة الصوفية اللاعقلانية التي تربط اليهودي بفلسطين . ولذا أصروا جميعا (باســتثناء فئة قليلة تســمى بالصهيونيين الاقليميين الذين بحثوا عن أي بقعة في العالم لانشاء الدولة اليهودية) أقول أصروا جميعا على أن تكون فلسطين هي الأرض التي تنشأ عليها الدولة والتي يجب أن يتجمع فيها المنفيون . وقد يختلف الصهاينة فيما بينهم على « شكل الدولة » : فبعضهم يرى أن تكون علمانية ليبرالية بيضاء ، والبعض الآخر ينادي بأن

تكون ماركسية ثورية حمراء ، وفريق ثالث يرى أن تكون دولة يهودية ثيوقراطية صفراء تنفذ ما جاء فى الكتب الدينية اليهودية حرفيا ، غير أن كل هذه الخلافات هى خلافات حول الشكل ، لان أسطورة العودة تشكل نقطة البـــدء لكل هذه المدارس الفكريـــة الصهيونية .

ولكن الصهيونية كما أشرنا من قبل حولت أسطورة العودة الى رؤية للتاريخ بل والى رؤية للانسان اليهودى والى برنامج سياسى ، ولذا يمكننا القول أن الصهيونية تخلق غيبياتها العلمانية ، فهى علمانية لأنها فرغت الأسطورة الدينية من محتواها الدينى والروحى وحولتها الى واقع سياسى خاضع للتقنين الموضوعى ، ولكنها غيبية لأنها تستند الى أساس لا عقلانى ليس له وجود انسانى أو تاريخى استوردته الصهيونية من التراث الدينى اليهودى (ولهذا السبب كان على الصهاينة أن يخفوا عن أنظار العالم « المتحضر » الوجود الفلسطينى حتى تظهر رؤيتهم على انها مثالية ثورية ، وليست مثالية غيبية) . بسبب هذه الغيبية العلمانية لم يجد المعسكر الدينى أية غضاضة فى الانضمام للصهاينة العلمانيين . يقول الحاخام صموئيل موهيليفر Samuel Mohilever (١٨٢٤ — ١٨٩٨) : « يعتقد بعض الحاخاميين أن القومية تتناقض مع ايماننا بقدوم المسيح ، لذلك فأنا مضطر لأن أعلن أن ذلك ليس صحيحا على الاطلاق لأن أملنا وايماننا كان دائما ولا يزال هو أن مسيحنا المنتظر سيأتى ويجمع اسرائيل المشتتة ليسكن أبناؤها فى بلدهم بدل أن يظلوا هائمين على وجه الأرض يتنقلون من مكان لآخر » (٢٨٣) . وقد أشار هرتزل فى خطابه أمام المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل عـــام ١٨٩٧ الى ظاهرة التعايش بين اليهود المحافظين التقليديين واليهود المحدثين داخل اطار الصهيونية (دون أن يحاول بالطبع تفسيرها) : « قدمت الصهيونية شيئا عظيما يكاد يكون مستحيلا حتى الآن ، الاتحاد الوطيد بين العناصر اليهودية الحديثة المتطرفة والعناصر اليهودية المحافظة المتطرفة . وقد حدث هذا بموافقة الطرفين دون أى تنازل من الجانبين ... ودون أى تضحية فكرية» (١٢٤) (وكيف كان ذلك ؟) . وهذا مثل آخر على الديالكتيك الزائف أو على امكانية أن تتعايش التناقضات داخل العقل الصهيونى دون تفاعل أو حسم ، ولكن هذه التناقضات ليست حقيقية لأنها

تمس المظهر دون المخبر . ان الفارق بين « علمانية » الصهاينة السياسيين وغيبية الصهاينة الدينيين ليست بأى حال جوهرية . وهذا يفسر لماذا يمكن أن يتفق فى الرأى كلّ من موشى ديان ، الصهيونى الملحد ، واسحق نسيم ، رئيس الحاخامات السفارديين فى اسرائيل . فحينما صرح ديان بأنه اذا اجتمعت التوراة وأمة التوراة لابد وأن تكون معهما أيضا أرض التوراة ، (وهذا هو ثالوث وحدة الوجود) أبرق له الحاخام نسيم مهنئا اياه « لتفهمه العميق للمفهوم اليهودى » ، ودعا له بأن يكون من المحظوظين الذين سيرون اسكان وتعمير هذه الأماكن بعد أن تتولاها اسرائيل ! لقد اتفق الحاخام والجنرال لأنهما ينتميان الى تراث حضارى لا يفرق بين ما هو مقدس وما هو قومى ،ولا بين عالم الحاخام الالهى وعالم الجنرال القومى ، بل تسيطر عليه صورة النبى الغازى الذى يجسد ارادة الشعب التى هى ارادة الله ، وفى هذا الاطار يصبح الجيش الاسرائيلى خير مفسر للتوراة كما يقول النبى الغازى بن جوريون .

ان الفارق الوحيد بين الصهيونى الليبرالى العلماني والصهيونى الدينى أو الروحى أنه بينما لا يلتزم الأول بأية قيم روحية أو أخلاقية ، يلتزم الآخر — على الأقل فكريا — بالقيم الأخلاقية اليهودية . وهذا تناقض لم يتمكن احاد هعام ، مؤسس الصهيونية الروحية ، من حسمه ، فقد أراد أن يحول فلسطين الى « مركز روحى » لليهودية فى العالم ، ولكنه رغم علمانيته كان يؤمن ببعض القيم الأخلاقية . ولذا فانه حينما ذهب الى فلسطين ، الى مركزه الروحى ، وسمع عن ارهاب الصهاينة ضد العرب ، فجع فيما رأى وقال كلمته المأثورة : « اذا كان هذا هو المسيح المنتظر ، فانى لا أود رؤيته » .

(ب) اسطورة استمرار اسرائيل والقياس التاريخى الزائف

ان وجود المطلق متجسد فى اليهود داخل التاريخ يلغى فكرة الصراع الحقيقى المحسوس الذى يدفع بالتاريخ للأمام ، كما أنه يؤكد الاستمرار والثبات وينفى التغير والتحول . وبالفعل تسيطر على العقل الصهيونى أسطورة استمرار اسرائيل ، فيهود العالم

الحديث هم ورثة مباشرون لقبائل اسرائيل القديمة ، وما حكومة اسرائيل الحالية فى فلسطين المحتلة الا كومونولث اليهود الثالث (باعتبار أن الكومونولث الأول هو الذى حطمه الآشوريون فى عام ٧٢١ ق.م. والثانى هو الذى حطمه الرومان عام ٧٠ ب.م.) . يقول سمولنسكين : « نعم نحن شعب ... نحن شعب منذ البداية حتى الآن ، لم ننقطع عن كوننا شعبا بعد أن دمرت مملكتنا وشردنا من أرضنا » (٤٦) . أما نحمن سيركين فيقول انه ظن لبعض الوقت بأن الجرح اليهودى الشهير الذى استمر فى النزف « منذ سقوط القدس حتى سقوط الباستيل كان على وشك الاندمال الكامل ولكنه خابت ظنونه » (٢٢٠) . ويقول سوكولوف انه ثمة وحدة شاملة « فى التاريخ اليهودى تضم كافة الأجيال الممتدة من ابراهيم حتى المعاصرين »(١) . ولذلك يدعى بعض الصهاينة « بأن أصول الصهيونية تمتد بعيدا منذ أيام الأنبياء الأوائل » ، وأن الدعوة للعودة شيء متصل منذ بداية التاريخ اليهودى حتى الآن ، من الأنبياء الأول الى هرتزل (٣٥٤) على حد قول ادموند فليغ Edmond Fleg (١٨٧٤ — ١٩٦٣) الشاعر والمؤلف المسرحى الفرنسى اليهودى .

وتترجم أسطورة الاستمرار نفسها الى ما يمكن تسميته بالقياس التاريخى الزائف الذى يفترض أن الظواهر المحيطة بيهود اليوم تشبه فى كثير من الوجوه الظواهر التى واجهها اليهود فى ماضيهم السحيق . فنجد مثلا أن حاييم ويزمان يطالب العرب فى خطابه أمام المؤتمر الصهيونى العشرين (١٩٣٧) بالتفاوض مع اليهود ، مذكرا اياهم أنه خلال الفترات العظيمة من التاريخ العربى تعاون الشعبان سويا فى بغداد وقرطبة على حفظ كنوز الثقافة الغربية (٤٥٧) . العرب لا زالوا كما كانوا ، واليهود أيضا لم يتغيروا ، أما الظروف التاريخية المتغيرة فهى أمر ثانوى يمكن التغاضى عنه كلية . ويدعو الحاخام كالبشر ، وهو من أوائل المفكرين الصهيونيين ، كل يهود العالم للعودة للأرض وللعمل بجد « وهكذا سوف لا نحتاج

---

(١) يورى ايفانوف ، ترجمة ماهر عسل ، **الصهيونية حذار : دراسة سوفيتية فى تاريخ وتنظيم الحركة الصهيونية** (القاهرة : دار الكاتب العربى ١٩٦٩) ٧ .

لاستيراد القمح من مصر أو من البلاد المجاورة لأن محصولنا سيكون وفيرا » (١٦) . وقد تكون الاشارة هنا للتوقعات المسيحانية اليهودية بخصوص المعجزات التى ستحدث فى أرض الميعاد بعد العودة ، فالأرض الجدباء ستخصب وتزدهر ، واللعنة التى حلت على الأرض لغياب أهلها عنها ستزول لتعم النعمة والبركة(١) . ولكن هذه ليست هى القضية ، فالذى يهمنا هو أن ظاهرة حديثة مثل الاستعمار الاستيطانى ينظر اليها الحاخام على أنها تعبير عن حقيقة أزلية صوفية ، وينظر اليها فى ضوء تجارب اليهود الأسطورية . ولعل من أطرف الأمثلة على هذا الايمان باستمرار اسرائيل والقياس التاريخى الزائف هو ما صرح به أستاذ للتاريخ بالجامعة العبرية من أن جنود اسرائيل عام ١٩٦٧ قد راوا البحر الأحمر لأول مرة بعد أن عبره موسى منذ آلاف السنين! وقد كان من الشائع فى الولايات المتحدة بعد حرب يونيه مباشرة أن يحاول بعض الحاخامات تفسير أسفار العهد القديم مبينين أن معارك يونيه أن هى الا تكرار لمعارك حدثت من قبل (الدوائر المغلقة مرة أخرى والتاريخ الذى لا معنى له) . ولكن المرء لا يملك الا أن يتساءل : قد يكون ضرب طائرات الميج الفرعونية بالقنابل بل ورش معسكرات الكنعانيين بالنابالم قد ورد ذكرهما فى الكتب اليهودية المقدسة القومية ، ولكن هل ورد أيضا ذكر ضرب الليبرتى ؟ ألم يكن من الأفضل أن يطلب العبرانيون من حلفائهم صبغ غواصة التجسس بالدم حتى لا يهلكها يهوه عن طريق الخطأ ؟

ويجب علينا التنويه هنا بأن أسطورة العودة وأسطورة استمرار اسرائيل ليستا الأسطورتين الوحيدتين اللتين ورثهما الصهاينة عن التراث اليهودى ، فهناك أسطورة الشعب المختار وأسطورة المسيح المخلص وأسطورة الأمة الروحية وهى أساطير سبق أن عرضنا لها وسنشير لها عدة مرات فى طى دراستنا .

---

(١) أسعد رزوق ، **التلمود والصهيونية** (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ١٩٧٠) ٢٥٦ — ٢٥٨ .

٩ ـ المصطلح العلمانى الصوفى

يبدو أن مقدرة تناقضات الفكر الصهيونى على التعايش لا حدود لها ، فمن الملاحظ أنهم رغم تأكيدهم على روحانية الأمة اليهودية واستمرارها لا يكلون عن ترديد أن اليهود يكونون أمة مثل كل الأمم وأنهم يريدون أن يعيشوا حياة طبيعية . وهذا الشعار ليس من قبيل الدعاية السياسية المقصود منها الاستهلاك العالمى أو المحلى ، بل هو جزء حقيقى من الرؤية الصهيونية المتناقضة كما تدل على ذلك كتابات بنسكر وهرتزل وبن جوريون ، فاليهودى الصهيونى يعود الى ماضيه ويهرب منه ، وبنفس الطريقة نجد أنه يدافع عن دوره غير التاريخى المطلق ، ولكنه يلوذ أيضا بالفرار الى الوجود الانسانى العادى . والرغبة فى الحياة العادية هى فى الواقع تعبير عن رغبة فى الهروب من الماضى اليهودى ومن التميز الذى يسبب الانعزال . ان غوردون يدعو اليهود الى الخروج من قوقعة الجتو والماضى ليحيوا حياة طبيعية غير هامشية (٢٥٥) ، لأن حياة المنفى أعاقت نمو اليهودى الطبيعى وتحقيقه لذاته (٢٦١) . ثم يضيف غوردون أن « على من يريد البعث القومى والحياة اليهودية الكاملة أن يتخلى عن حياة المنفى » (٢٥٩) . فكما وضع بيرديشفسكى اليهودى فى مقابل ماضيه ، يضع غوردون حياة الشعب المختار الجماعية المتميزة مقابل حياة الانسان اليهودى الطبيعية العادية .

وقد حاول سمولنسكين داعية الاحياء الثقافى العبرى أن يحل هذا التناقض بالطريقة الصهيونية المعتادة : أما تجاهل التناقض أو تصفيته ، فهو يقول : « توراتنا هى وطننا الذى يجعل منا شعبا وأمة بالمعنى الروحى » اى أن اليهود أمة روحية ليست مثل كل الأمم ، ولكنه يضيف قائلا : « ولكننا فى حياتنا العملية الطبيعية كبقية الناس » (٤٧) ، (غيبية الرؤية وعلمانية السلوك اليومى) . اليهودى اذن روحى عملى ، غيبى علمانى ، حاضره المادى لا يناقض وجدانه الأسطورى ، أى أنه أعجوبة العجائب ، أليس هو نتاج المقدسات القومية والقومية المقدسة ؟ وهذه التناقضات التى لا تكون كلا متكاملا وانما تكون مزيجا ميكانيكيا بين متناقضين ثابتين غير متفاعلين ، هذه التناقضات عبرت عن نفسها فى أسلوب

الصهاينة الذى تختلط فيه المصطلحات الصوفية الغيبية بالمصطلحات العملية السياسية . ولعل هذه العبارة التى وردت فى خطاب الشاعر حاييم نحمن بياليك فى حفل افتتاح الجامعة العبرية فى القدس عام ١٩٢٥ من افضل الأمثلة على هذا المصطلح العلمانى الصـــوفى الصهيونى ، فهو يتحدث عن وعد بلفور (هـــذا القرار السياسى) على أنه ســـيبدأ عهدا جديدا « خير من كل العهود السابقة ، وسينتهى بانجيل جديد ، انجيل خلاص البشرية كلها » (١٨٠) . ويبدو أن وعد بلفور (وهو جزء من التاريخ اليهودى المقدس) تحيطه الآن هالة من القداسة فى عقل الصهاينة الذى تعشش فيه كثير من أقاصيص المـــاضى والأساطير . فالعـــالم الكيمائى الصهيونى الشهير وايزمان ، الذى تسمى باسمه كثير من المعـــاهد العلمية فى اسرائيل وخارجها ، مارس أحاسيس صوفية عميقة بعد حصوله على هذا الوعد السياسى من الامبراطورية البريطانية : « صدقونى بأننى عند ما كنت أحمل وعد بلفور بيدى شعرت وكأن شعاعا من الشمس حط على ، وخيل الى بأننى سمعت وقع أقدام المسيح المنتظر » (٤٥٠) . وهكذا ترجمت الحقيقة السياسية نفسها الى واقعة أسطورية فى ذهن وايزمان ، فاستخدم المصطلح الصهيونى المتناقض . واذا كان بلفور هو الذى عجل بوصول المسيح المنتظر فان « وجود عبد الناصر فى الشرق الأوسط كان له أثر عكسى فهو الذى يعرقل مجىء المسيح ، ويعرقل بداية الخلاص » (وهذا تصور سائد فى اسرائيل كما يبين يورى أفنيرى فى مقال طريف له عنوانه « الجان والأرواح »)(١) . ومن أطرف الأمثلة على هذا المصطلح العلمانى الصوفى مقال سمولنســـكين المعنون « البحث عن طريقنا » الذى يحاول فيه أن يبرر اختياره لفلسطين كأنسب الأماكن للهجرة اليهودية . أما السبب الأول الذى يسوقه فهو كما يلى : « ســـيذهب أولئك الذين يحبون ذكريات أسلافهم عن طيب خاطر اذا تأكدوا من أنهم سيكسبون معيشتهم هناك » (٥٢) . ينقسم هذا العرض للقضية الى قسمين لا يربطهما رابط ، قسم صوفى سلفى والثانى عملى بارد . أما السبب الثانى الذى يورده سمولنسكين فلا يقـــل تناقضـــا : « الأرض المقدسة

---

(١) هاعوم هزه ٧ — ١ — ١٩٦٩ .

ليست بعيدة عن مساكنهم » . يبدو أن العناية الالهية قد اختارت الأرض المقدسة بالقرب من منافى اليهود حتى يمكنهم « العودة » اليها بسعر معقول . أما السبب السادس والأخير فهو متناقض لدرجة تثير الضحك والاشمئزاز معا : « يستطيع المستوطنون أن يزدهروا باقامة مصـــانع للزجاج والمنتجات المشـــابهة لأن رمال الأرض المقـــدسة ذات نوعية عاليـــة » (٥٣) . لأن اليهودى يعيش خارج التاريخ وداخله ، داخل الدائرة المقدسة **أبدا** وداخل الكرة الأرضية **مؤقتا** ، فهو مرتبط صوفيا بالأرض المقدسة ، ولكنه أيضا يعرف سعرها الحقيقى ويعرف كيف يعرضها للبيع والايجار ! وقد برر بوروشوف ، المـــاركسى الصهيونى المسكين ! تفضيله لأرض الميعاد على أى بقعة أخرى فى العالم على أساس أنها أرض فقيرة لا تصلح للاستثمار الرأسمالى الذى هدفه الربح المـــادى المحض ، وحسب هذا التصور نكتشف أن العناية الالهية عنـــدها اتجاهات يسارية تتفق واتجاهات هذا الصهيونى الماركسى . ولكن بوروشوف حسم هذا التناقض عن طريق تقبله على علاته دون مناقشة .

١٠ ـــ أسطورة العودة للطبيعة الكونية

يمكننا أن نعد الصهيونية ـــ من بعض النواحى ـــ حركة رومانتيكية فهى تثور على الفكر الاستنارى وعلى العقل عامة ، كما أنها تؤكد أهمية العاطفة وتطالب اليهود بالعودة الى المـــاضى المجيد وبالتمرد على التراث . كما أن لا تاريخية الصهيونية وتيار وحدة الوجود الذى يسرى فيها يشبه الى حد بعيد النزعة اللاتاريخية والبانثية الموجودة فى الفكر الرومانتيكى . ومن أهم الشعارات الرومانتيكية التى تبناها لفيف من المفكرين الصهيونيين شعار العودة للطبيعة ، فآرون غوردون يدعو اليهود للعودة للطبيعة فى نغمـــة مفعمة بالعاطفة : « وعند ما تعود الى الطبيعة أيها الانسان ستفتح عيونك فى ذلك اليوم وتنظر مبـــاشرة فى وجهها ، وفى مرآتها ســـترى صورتك ، عندئذ ستعرف أنك انما قد رجعت الى نفسك لأنك عندما اختبأت عن الطبيعة كنت مختبئا عن نفسك » (٢٥٥) . أما بيرديشفسكى فهو يقول : « أن الكون يدل على عظمة الله ، والطبيعة تحكى صنع يديه ، لأن الطبيعة هى أم كل الحياة ومصدر

كل الحياة ، انها منبع الكل ، وهى منبع وروح كل الكائنات الحية » (١٨٦) (الواحد الكل الذى يبتلع الأجزاء ويطمس معالمها بدأ فى الظهور) . وهو يخلص من ذلك الى أن « كل من يسير فى طريقه ويرى شجرة جميلة وحقلا جميلا وفضاء جميلا ويتركها ليفكر فى أمور أخرى ، يكون كمن خسر حياته » . وفى لغة كلها لوعة والم يقول : « ردوا الينا شجراتنا الجميلة وحقولنا الجميلة ! ردوا الينا الكون » (١٨٧) .

والدعوة للعودة للطبيعة تبدو وكأنها دعوة للحياة ولتجديدها ، فبرديشفسكى يرى أن اليهود بابتعادهم عن الطبيعة قد أصبحوا « رجالات نضبت قواهم الطبيعية » (١٨٣) . أما غوردون فيرى أن السنوات الألفين التى قضاها الشعب اليهودى معزولا عن الطبيعة داخل أسوار المدينة كانت سنوات سجن (٢٥٥) . والابتعاد عن الطبيعة حول الدين اليهودى الى « يهودية مجردة » تعلو على الانســـان ، لأنها تضعه فى « قوالب جاهزة ميتـــة » (١٨٣ — ١٨٤) ، ولهـــذا فالتراث اليهودى ثقل يرزح تحته اليهودى ويتناقض مع كل ما يشعر به فى قلبه كفرد (١٨٨) ، وهو يجـــد نفســـه مضطرا دائما أن يضحى بنفسه من أجـــل الشعب « فأهدافه الشخصية تتعارض فى بعض الوجوه مع أهداف المجموع » (١٨٩) . « ان الانسان اليهودى ... مكبوت يعيش بعاداته وقوانينه ومبادئه وأحكامه التقليدية ، وذلك لأن أشياء كثيرة خلفها له أسلافه من شأنها أن تميت الروح وتنكر على النفس حريتها » (١٩٠) .

ويتجلى هذا الموت فى أعلى صوره فى شخصية يهودى الدياسبورا الذى كان يعيش داخل جدران الجتو والذى فقد احساسه بالطبيعة وانشغل فى تصورات فكرية مجردة ، ولذا فقد أصبح شـــخصية هامشية شاذة غير طبيعية لا يمكنه أن يقوم الا بأعمال فكرية مثل المحاماة والمحاسبة . ان احتقار العمل اليدوى قوى بين اليهود لدرجة « أن أولئك الذين يقومون بهذا العمل يفعلون ذلك مضطرين وعليهم أن يهربوا منه يوما الى حياة أفضل » (٢٥٦) .

مقابل هذا الموت الذى تفرضه الحياة والتقاليد اليهودية يطالب

الصهاينة « الطبيعيون » بمنح الفرد اليهودى الفرصة أن « يحيا » (١٨٩) وأن تصبح القومية اليهودية « قومية حيـة متطورة » (١٨٤) . والعودة للطبيعة هى السبيل لحياة جديدة تختلف عن « حياة المنفى » (٢٥٩) حياة يتحول فيها اليهودى الى « كائن بشرى طبيعى ، سوى ، صادق مع نفسه » (٢٦١) . وعن طريق العمل اليدوى يمكن أن يمتلك اليهود « ثقافة خاصة » بهم ، ومن « خلال العمل فقط ، كمثل أعلى ... يستطيع اليهود أن يشفوا انفسهم من الطاعون الذى يعانون منه منذ عدة أجيال ، وأن يرأبوا الصدع بينهم وبين الطبيعة » (٢٥٨) . لا بد أن يصبح الشعب المقدس « شعبا حيا » (١٩٢) .

ان شعار العودة للطبيعة الذى تبناه بعض الصهاينة من الممكن أن يصبح بالفعل شعارا ثوريا ودعوة للحياة اذا أريد به ايقاظ الانسان وتنبيهه الى امكانياته الانسانية الكامنة ، وذلك عن طريق افتراض وجود « حياة أفضل وأكثر طبيعية » لأنها أكثر تناسـبا مع امكانيات الانسان كفرد وامكانيات الجماعة الانسانية (وهذا ما فعلته البورجوازيات الأوروبية فى مرحلتها الثورية الليبرالية) . ولكن شعار العودة للطبيعة نفسه يمكن أن يتحول الى شعار رجعى غير انسانى اذا ما أريد به العودة الى طبيعة مطلقة تتحدى حدود التاريخ وتلغيه ، طبيعة يمتزج بها الانسان ويفقد وعيه وكيـانه الفردى ووجوده النسبى التاريخى . ويمكننا القول أن ما يحدد ثورية شعار العودة للطبيعة من رجعيته هو نوعية « الطبيعة » التى « يعود » لها الانسان : هل هى طبيعة لها وجه انسانى وملامح انسانية ، أم أن وجهها مطلق جامد ؟ ولذا يجب أن نسأل عما اذا كانت الطبيعة التى يعود لها الصهاينة طبيعة حية خصبة معطاءة ، أم أنها تقع داخل الدائرة المطلقة ؟ هل هى حقا دعوة صهيونية لليهود أن يخرجوا من تحت نير مملكة السماء الى الحياة المحسوسة الطبيعية ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فانه ولا شك أمر مثير للدهشة ، لأن الصهاينة قوم عابسو الوجه لا يتحدثون بتاتا عن اليهودى كفرد من حقه أن يحيا حياة محددة سـعيدة ، بل يتحدثون عنه كبطل أو شهيد ينتمى الى ذلك الشعب المختار الذى يحمل عبء رسالته الأزلية .

اكتشف الصهاينة « الطبيعيون » ما يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الطبيعة اليهودية » ، فبيرديشفسكى تذكر أن أسلافه المباشرين تركوا له الجتو ولكن أسلافه القدامى من الرعاة والمزارعين تركوا له أيضا « نشيد الأنشاد » ، نشيد «أمجاد الطبيعة السامية التى لا حدود لها » (١٩٠) . واكتشاف الصهاينة الطبيعيين لهـذه الطبيعة القديمة مكنهم من أن يطرحوا تصورا جديدا للتـاريخ اليهودى وللبعث القومى الحديث ، فهم قدموا تصورا لحياة اليهود القدامى على أنهم شعب من الرعاة الغزاة يعيش فى بساطة ووئام مع الطبيعة ، ممتزجا بالأرض ، شعب عبرانى له جذور وليس شعبا هائما على وجهه منفيا (مثل يهود الدياسبورا الهامشيين) .

ويعطينا برديشفسكى فى مقاله « فى اتجاهين » صورة لاسرائيل القديمة الطبيعية التى تغنى « أغنية الكون والطبيعة ، أغنيـة السـماء والأرض والهها ، أغنية البحر وامتلائه ، أغنيـة التلال والمرتفعات ، أغنية الأشجار والأعشاب ، اغنية البحار والجداول ، وبعد ذلك جلس كل اسرائيلى تحت كرمته أو تينته ، ثم نبتت البراعم على التينة ، وامتد سحر التلال الخضراء الى البعيد ... ان تلك الأيام كانت أيام بحبوحة وجمال » (١٨٦) .

وهكذا يهرب اليهودى المتمرد الى طبيعة يهودية . ولكننا نعرف تماما أن كل ما هو يهودى تلفحه لفحة من القداسة فيفقد الحياة ويكتسب ثبات الأزلية ، وهذا هو الحال مع الطبيعة اليهودية فهى تقع داخل الدائرة المتجمدة . ولعل هذا يفسر السر فى وجود بعض الحاخامات « الرومانتيكيين الطبيعيين » مثل الحاخام كوك الذى يطالب اليهود بالعودة للطبيعة فى كلمات تشبه الى حد كبير كلمات المتمردين الطبيعيين من عدة وجوه : « لقد أدرنا ظهورنا عن الاهتمام بحياتنا الجسدية وعن تطوير أحاسيسنا ، كما أهملنا كل ما له علاقة ملموسة بحقيقة الجسد لأننا أصبحنا فريسة لمخاوفنا ، كان ينقصنا الايمان بقدسية الأرض » . ثم يقتبس الحاخام كوك من المشناه عبارة مفادها أن الايمان يمكن أن يعبر عن نفسه عن طريق الزراعة أو العمل اليدوى « فالانسان يمكن أن يبرهن عن ايمانه بالحيـاة الأزلية عن طريق الزراعة » (٣٠٥) . (وهذا يذكرنا بقول الحاخام كاليشر بأن الاستيطان فى فلسطين سيساهم فى تطبيق « الوصايا الدينية المتعلقة بالعمل فى تربة الأرض المقدسة » [١٦]) . العودة

للطبيعة اليهودية اذن هو الطريق للحياة الأزلية والدائرة المغلقة . والمطلق الذى ظهر واضحا فى الاقتباس السابق من كتابات الحاخام كوك كان مختفيا بين ظلال الأشجار الوارفة فى كتابات الصهاينة المتمردين ، ولكنه كان هناك طيلة الوقت . ولو درسنا أجزاء أخرى من كتاباتهم لوجدنا أن المطلق بوجهه الذى لا قسمات له ولا ملامح يظهر بشكل سافر ودون حياء . ففى مقال لغوردون بعنوان « بعض الملاحظات » ينبه الكاتب القارىء الى أن العودة للطبيعة ليست هى العودة « للحياة العادية التى تشكل أسلوب حياة كل الأفراد وكل الأمم » (٢٦١) فاليهود لا يتبعون بأى حال « طريق الضرورة التاريخية » (لأنهم خارج التاريخ) . ورغم أن غوردون يتسامح قليلا ويقرر أن ثمة « عاملا تاريخيا » دخل فى تكوين الشخصية اليهودية (٢٦٤) الا أنه يعود فيؤكد أن العنصر الكونى الذى يمكن وصفه « بأنه مزيج من أرض الوطن القومى الطبيعية وروح الشعب الذى توطن هذه الأرض » هو المكون الأساسى لهذه الشخصية (٢٦٣) . و « مجنون الروح » (وهو انسان غوردون الطبيعى الذى يعيش على الفطرة) لا يقنع بالتفكير فى الحياة كما يفعل يهود الجتو وانما يسعى لها ، وهو لا يبحث عن الحياة الانسانية المحسوسة « بل عن حياة ذات أبعاد كونية ، حياة على صورة الله ، حياة أزلية » (٢٦٨) ، حياة لا تاريخية لا تنبض بأية حياة . ويهود الدياسبورا المساكين يحيون وجودا تاريخيا وحسب (مثلهم مثل بقية البشر) ولكنهم عن طريق العودة للطبيعة الفلسطينية فى أرض الميعاد ، وفى أرض الميعاد وحدها دون سائر بقاع الأرض ، يمكنهم أن يخوضوا تجربة بعث « الجانب الكونى » لشخصيتهم (٢٦٥) .

ولا يتفق مارتن بوبر « الانسانى العبرانى » ، كما يصف نفسه وكما يصفه بعض دارسى فلسفته ، مع فكرة العودة للطبيعة فى مقاله « الانسانية العبرية » حيث يقول : « صحيح أننا بحاجة الى الحياة العادية ، ولكن ذلك ليس كافيا لنا بأى شكل من الأشكال ، فنحن لا نستطيع الاكتفاء « بالطبيعة » **بل الغرض الأساسى الأزلى لوجودنا** . اذا أردنا ألا نكون سوى اناس عاديين ، سوف يتوقف وجودنا حالا » (٣٣٩) . ويخلص بوبر من ذلك الى أنه يجب وضع « الانسانية العبرية ضد القومية اليهودية التى

تعتبر اسرائيل أمة كالأمم الأخرى » (٣٣٥) ، أى أن بوبر يرفض مقياس « الطبيعة » ويرفض قيم الحياة العادية الطبيعية للحكم على اليهود واليهودية .

ولكن المفكر الانسانى الهيومانى يعادى الطبيعة لأنه يحاول أن يعلى ذات الانسان على ما عداها من الأشياء ، وهو يرفض القيم السائدة العادية ليصل الى أفق أكثر رحابة . أما بوبر فهو يحرر الانسان من الطبيعة ولكنه يطلب منه أن يسجد أمام وثن « الوجود الأزلى » ، وهو وثن يرتدى قناعا انسانيا تاريخيا ولكنه وثن لا مراء فى ذلك،فما هو بالانسانى وما هو بالتاريخى . ورغم كل الاختلافات الفكرية بين بوبر المتصوف وغوردون الرومانتيكى العلمانى فانه يمكننا القول أنهما يتفقان على وجود عنصر كونى أزلى فى الطبيعة اليهودية يراه بوبر متجسدا فى التاريخ اليهودى وفى القيم اليهودية (مثل اليهود القدامى المتدينين) بينما يراه غوردون متجسدا فى الطبيعـــة وفى أرض الميعاد (مثـــل بعض الصـــهاينة المحـــدثين العلمانيين) . والفارق بين المفكرين طفيف ، وهو فى الواقع فارق فى التسميات ، فاليهودية كمطلق لا تختلف كثيرا عن الطبيعة كمطلق فكلاهما جامد لا يتغير وكلاهما يعلو على الانسان . وهذه حقيقة تنبه لها الحاخام الصهيونى باينس ووصفها دون أن يبين دلالتها الأخلاقية ، فقد شـــبه باينس تطور اليهودية بتطور الطبيعة لأن « الجوهر يدوم ، فى حين أن الأشكال تتغير من لحظة لأخرى » (٢٨٧) ، (ويلاحظ هنا عدم الاكتراث الهيجلى المثالى بالشكل المعين المحسوس) . ان تاريخ بوبر أو يهوديته أمر ثابت جامد يكرر نفسه فى دورات متداخلة متشابهة تماما مثل طبيعة غوردون ، وهذا التشابه ناتج عن أن بنية أفكارهما متشابهة ، وهى البنيـــة الصهيونية التى جوهرها ذوبان الأجزاء فى الواحد ، بنية البانثيزم أو وحدة الوجود . (أنظر « ٣ ــ وحدة الوجود اليهودية ») .

وقد يختلف « محتوى » وحدة الوجود من مفكر صهيونى لآخر ، وقد تختلف الظواهر التى يحل فيها المطلق ولكن البنية واحدة لا تتغير وهذا هو جوهر وثنية وفاشية كل الصهاينة ابتداء من أى حاخام أرثوذكسى مرورا على بوبر الصوفى العلمانى وانتهـــاء بمـــاجنس العلمانى الروحى وديان الجنرال الملحد . وفيما يلى سنورد بعض

الاقتباسات من كتابات بعض الصهاينة لنبين مدى التطابق بين أفكارهم مكتفين بالحد الأدنى من التعليق ، ولنبدأ بمارتن بوبر :

« ان خلاصنا الوحيد هو فى أن نصبح اسرائيل من جديد ،ونصبح كلا واحدا فريدا يتألف من الشعب والمجتمع الدينى ، شعب متجدد ودين متجدد تجمعهما وحدة متجددة ... ان القيم العظيمة التى أنتجناها نجمت عن **تزاوج** الشعب والدين ، فلا نستطيع الاستعاضة عن هذا **الزواج** الأصلى بالجمع بين الأمة والدين جمعا سطحيا مصطنعا لأن ذلك يؤدى الى نضوب القيم ، ذلك أن قيم اسرائيل لا يمكن أن تولد من جديد خارج اطار هـــذا الاتحاد ذى الوضع الخاص » (٣٣٩) .

العناصر الواردة من ثالوث وحدة الوجود : (الشعب ـــ الدين [الله] ـــ ...) العناصر الغائبة : (الأرض) .

ولكن فى خطاب بوبر الذى أرسله الى المهاتما غاندى يطلب منه فيه تأييد الاستيلاء الصهيونى على « الأرض » نجد أن الثالوث قد اكتمل :

« اننا لم نستطع ولا نستطيع أن نتخلى عن المطلب اليهودى فهناك شىء أسمى حتى من حياة شعبنا مرتبط بهذه الأرض ، انه عمل الشعب ورسالته المقدسة » (٣٤٠) .

(الشعب ـــ رسالة الشعب المقدسة [الله] ـــ الأرض) .

ان المطلق الذى يعلو على الانسان قد ربط الشعب بالأرض ربطا لا فكاك للشعب منه ، وبوبر يستخدم اســتعارة الزواج التى استخدمها من قبل فى وصف علاقة الشعب بالدين ليصف علاقة اليهودى بالأرض :

« اننى أؤمن **بتزاوج** الانسان والأرض ... ان هذه الأرض تعترف بنا لأنها بواسطتنا تصبح مثمرة » (٣٤١) .

(الشعب ـــ ... ـــ الأرض) (الله) .

(واستعارة الزواج تحيط بها هالة من القداســة فى التراث اليهودى ، فعلاقة الله بالشعب قد وصفت فى العهد القديم بأنهــا مثل علاقة الزواج) . ولا يختلف موقف بوبر ، رغم انســانية مصطلحه الزائفة ، عن موقف الحاخام يهودا القالى Yehudah Alkalai (١٧٩٨ — ١٨٧٨) أحد رواد الفكر الصهيونى :

« نحن كشعب لا يليق بنا أن نلقب باسرائيل (المدافعين عن الله) الا اذا كنا فى أرض اسرائيل » (١٠)

(الشعب — الله — الأرض) .

وهذا لا يختلف كثيرا عن موقف الحاخام حاييم لانداو :

« ان روح شعبنا لا تستطيع التعبير عن نفسها الا اذا عادت الحياة القومية الى أرضنا من جــديد لأن القبس الالهى لا يؤثر فى شعبنا الا وهو فى أرضه » (٣٠٩) .

(الشعب — الله — الأرض)

أما الحاخام الصهيونى كوك فيقول :

« ليست أرض اسرائيل شيئا منفصلا عن روح الشعب اليهودى انها جزء من جوهر وجودنا القومى ، ومرتبطة بحياتنا ذاتها وبكياننا الداخلى ارتباطا عضويا . . . ان ما تعنيه أرض اسرائيل يمكن فهمه فقط من خلال روح الرب المنتشرة فى شعبنا ككل والتى تشع بتأثيرها على كل العواطف السليمة » (٢٩٤) .

(الشعب — الله — الأرض)

وأما الحاخام يهودا ليون ماجنس Yehuda Leon Magnes (١٨٧٧ — ١٩٤٨) أول رئيس للجامعة العبرية فيحدد القضية على النحو التالى :

« اليهودى لن يتخلى عن أرض اسرائيل ، ولن يستطيع أن يفعل ذلك [حتى لو أراد ؟] . لقد قلت أن فلسطين قيمة بحد ذاتها ، بصخورها وتلالها وجبالها » (٣٢٤) .

(الشعب ـــ . . . الأرض) (الله)

ويقول غوردون المتمرد :

« ان البعث القومى لن يتم الا عن طريق العودة الى حقول وطننا القومى وتحت سمائه . . . اننا نأتى لوطننا لنزرع فى تربتنا الطبيعية التى نزعنا منها ولنضرب جذورنا عميقة فى مصادرها الحياتية ، ولنمد فروعنا بعيدا خلال هواء وطننا القومى وتحت شمسه »(٢٦٥) .

(الشعب ـــ روح الحياة [الله] ـــ الأرض)

وليلاحظ القارىء استخدام الاستعارة العضوية التى تسوى الانسان بالطبيعة والأشياء .

وحينما سئل وزير الدفاع الاسرائيلى عمـا اذا كان من المنطقى أن يكون لمطالب اسرائيل « الدينية » و « التاريخية » بخصوص بعض أجزاء الأرض المحتلة دورا فى السياسة الاسرائيلية أجاب قائلا :

« هذا هو أساس الوجود الاسرائيلى : انه واحد من العناصر **الثلاثة** التى تشكل اسرائيل ، وهى : الشعب اليهودى ، والكتاب المقدس ، وأرض اليهود » (١) .

ولذلك « اذا اجتمعت **التوراة وأمة التوراة** فلابد وأن تكون معهما أيضا **أرض التوراة** » .

(الشعب ـــ التوراة [الله] ـــ الأرض)

---

(١) أدلى ديان بتصريحه فى أغسطس ١٩٦٧ ونشر فى **النهار** ٢٨ ـــ ٥ ـــ ١٩٦٨ ، **اسرائيل الكبرى** ٦٠٤ .

وهذه الكلمات هى التى نال عليها الحاخام موشى ديان تهنئة الجنرال اسحق نسيم حاخام السفارديين ، وهى كلمات لا تختلف كثيرا عن كلمات مارتن بوبر المتصوف الذى لا يقود جيشا لحسن الحظ .

ان اليهودى المتمرد يهرب الى طبيعة يهودية مقدسة مطلقة ساكنة ميتة ، لا تفترق كثيرا عن « تاريخ » بوبر الساكن المطلق ، أى أنه غير قادر على الانفلات من الدائرة المغلقة لأنه رفض الحلول العقلانية الراديكالية ، ولذلك فحركته تظل حركة دائرية لا معنى لها : من تراث مطلق مميت الى طبيعة مطلقة ميتة . ولهذا السبب فالصهيونى الطبيعى المتمرد لا يختلف البتة عن الحاخام الأرثوذكسى حامل لواء التراث أو عن الجنرال مفسر اللاهوت اليهودى .

وقد تنبه الحاخام الصهيونى حاييم لانداو لهذه الحقيقة (والصهاينة المتدينون الروحانيون هم أقدر الناس على فهم بنية الفكر الصهيونى لأنه لا توجد أية غشاوات ليبرالية علمانية أو اشتراكية ثورية على عيونهم) ، فبينما يرى غوردون أن العمل اليدوى هو «سمة الشعب الطبيعى » وهو سبيل « الانبعاث القومى » والحياة الحقيقية (٢٥٩) فان الحاخام لانداو يرفض هذه الاصطلاحات البريئة ويقرر «أن العمل والتوراة هما شكلان لجوهر واحد ... لا يمكن أن تولد التوراة من جديد بدون العمل وكذلك لا يمكن أن يولد العمل كقوة مبدعة فى بناء الأمة من جديد بدون التوراة التى هى جوهر الانبعاث »(٣١٣)، ولذلك فالعمل هو الوسيلة نحو « الوجود [اليهودى] ... **المنفصل** » (٣١١) أى أنه ليس سوى وسيلة للبقاء بعناد واصرار داخل الدائرة .

١١ ـ الانعتاق الذاتى عن طريق الاعتماد على الجوييم

رفض الصهاينة التصور التقليدى لليهودى كشاهد سلبى على التاريخ ينتظر عودة المسيح المنتظر ، وآمنوا بأنه يجب على اليهودى أن يتخلى عن طفيليته وأن يلجأ الى الفعل محاولا الانعتاق عن طريق الجهود الذاتية ، خاصة وأن الجوييم لا يمكن الاعتماد عليهم فهم أعداؤه الدائمون . يقول الحاخام القالى ان « الخلاص سيبدأ

بجهود اليهود أنفسهم ، يجب عليهم أن ينتظموا ويتحدوا ويختاروا القادة ، ويغادروا أرض المنفى » (١٢) . ويحاول الحاخام كاليشر مزاوجة الرؤى المسيحانية الصوفية بالبرنامج السياسى فيؤكد أن « العمل الزراعى اليهودى سيؤدى للوصول الى الخلاص » ثم يفسر هذه العبارة بقوله : « اذا ما قدمنا الخلاص للارض بهذه الطريقة الدنيوية ، فستظهر لنا الخلاص تدريجيا » (١٧) ، أى أن أمة الكهنة يمكنها الان أن تتدخل شخصيا ومباشرة فى التاريخ (نيابة عن المسيح المنتظر) لتؤسس الدولة اليهودية . و « الانعتاق الذاتى » ـــ وهذا هو عنوان كتاب بنسكر المعروف ـــ فكرة متسقة مع التصور الصهيونى للوجود اليهودى المنفصل ولذلك يتكرر ذكرها فى الكتابات الصهيونية .

وكان احادهعام يخشى أن تتحول الدولة اليهودية « المنفصلة » الى كرة تتلاعب بها الدول الكبرى ، ولكن يبدو أن الصهاينة ، دعاة الانعتاق الذاتى ، كانوا على يقين من هـــذه الحقيقة وحاولوا استغلالها بكل ما لديهم من حيلة . فهم لم يترددوا قط فى التزلف الى كافة الاستعماريين لضمان حمايتهم للمخطط الصهيونى المقدس، كما أنهم لم يتوانوا أبدا فى المناورة لاستصدار وعد بلفور أو فى الضغط على هيئة الجوييم المتحدةلاستصدار قرار بتقسيم فلسطين. وقد اكتشف هرتزل من البداية أن رؤى العهد القديم لن تتحقق الا عن طريق قوة امبريالية عظمى ، فقضى معظم حياته متنقلا من بلد استعمارى الى آخر . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، قام هرتزل بالاتصال أولا بسلطان تركيا ثم بقيصر المانيا وبعد ذلك عرض مشكلته على ملك ايطاليا ، ثم على وزير داخلية روسيا القيصرية فياشيلاف بليفيه ، رغم أن الأخير كان مشهورا بمعاداته للسامية وكان مشهورا بأنه بطل مذابح كيشينيف .

وقد بلغ من اتفاق هرتزل مع الاستعماريين من الجوييم أنه كان يتصور أن الدولة اليهودية أن هى الا تحقيق جزئى لمحاولة الرجل الأبيض ادخال حضارته الغربية على الشرق « المتخلف » ، ففى خطاب أرسله الى دوق بادن بتاريخ ١٨٩٦ قال : « اذا كانت مشيئة الله أن نعود الى أرض آبائنا التاريخية فاننا نود أن نعود كممثلين للحضارة الغربية وسندخل النظافة والنظام وعـــادات

الغرب الأصيلة الى هذه البقعة الفاسدة من الشرق التى تفترسها الأوبئة » (١) . ورغم أن هرتزل أحيانا يقدم الرؤية الصهيونية على أنها « عودة » لأرض الآباء وعلى أنها شيء سيتم بمشيئة الله ورعايته ، الا أنه يضع شروطه ويصر على أن يعود كرجل غربى متمدين يبنى صرح الحضارة الذى يقف شامخا ضد البربرية . (وهكذا نجد أن العناية الالهية التى كانت يسارية فى يد بوروشوف اصبحت استعمارية غربية فى يد هرتزل) .

ولكن هرتزل كان يعلم تمام العلم أنه ليس سوى سمسار لا يملك سلعة حقيقية يبيعها وأنه لا يملك سوى « خدمات » يقدمها لأسياده من المستعمرين ، ولذا فهو يعلن دون حياء أن الحركة الصهيونية ستحول يهود العالم (أو « أمة الروح المقدسة ») « الى عشرة ملايين عميل » لانجلترا اذا ما ساعدتهم الأخيرة على تحقيق الحلم الصهيونى(٢) (لم تكن الولايات المتحدة بعد هى مركز الثقل الامبريالى فى العالم) . والدولة اليهودية التى ستضم الشعب المقدس يمكن أن تقوم هى الأخرى بدور العميل والسمسار . وعلى سبيل المثال ، حينما رأى هرتزل — بثاقب نظره العملى — أن شعب مصر كان على وشك أن يثور على مستعمريه، وأن الانجليز سيحتاجون الى قاعدة أخرى فى الشرق كنتيجة لذلك ، وأن هذا الوضع سيفيد الدولة الصهيونية كثيرا ، كتب يقول : « انه مما يفيدنا أن يضطر الانجليز الى مغادرة مصر ، فانهم سيضطرون آنذاك أن يبحثوا عن طريق آخر الى الهند بدلا من قناة السويس ، التى ستضيع منهم أو على الأقل ستصبح غير مأمونة ... آنذاك تصبح فلسطين اليهودية الحديثة مناسبة لهم — الطريق من يافا الى الخليج الفارسى » (٣) . وهذا التصور للدولة اليهودية لم يكن فكرة عابرة ،

---

(١) ثيودور هرتزل ، **المذكرات الكاملة لثيودور هرتزل** ترجمة هارى دون وتحرير رفائيل باتاى (نيويورك : هرتزل برس وتوماس يوسلوف ١٩٦٠) الجزء الاول ٣٤٣ .

(٢) **يوميات هرتزل** اعداد أنيس صايغ وترجمة هلدا صايغ (بيروت : مركز الابحاث الفلسطينية ١٩٦٨) ٢٥٠ .

(٣) نفس المرجع ٢٥ .

بل فكرة أساسية تتكرر فى كتابات هرتزل(١) ، وغيره من الصهاينة ، فنجد أن بن جوريون ، وهو من كبار دعاة الانفصال اليهودى والانعتاق الذاتى ، يصرح حينما كان عضوا فى المؤتمر الصهيونى العالمى ، أن انجلترا « ستتمكن من أن تحصل على قواعد دفاعية فى البحر والبر فى الدولة اليهودية » (٢) . وقد أعطى حاييم وايزمان، الزعيم الصهيونى وأول رئيس لدولة اسرائيل ، تأييده لفكرة الدولة اليهودية كقاعدة للانقضاض على الشرق الأوسط . فقد أخبر أحد كبار موظفى وزارة الخارجية أن « فلسطينا يهودية ستكون خير حماية لانجلترا ، خاصة بالنسبة لمصالحها فى قناة السويس (٣) » . وهو يقدم هذا العرض الجذاب حتى تساعده دول الامبريالية فى محاولته الانعتاق الذاتى !

ورؤساء وزراء اسرائيل يحجون الواحد تلو الآخر الى دول الجوييم الامبريالية خاصة الولايات المتحدة حتى تبسط حمايتها التاريخية المؤقتة على أمة الكهنة والمسحاء المخلصين التى تقع فى « صرة » العالم وتطل على قناة السويس ! (أنظر : « ٤ — حلول الله فى التاريخ » لتفسير هذا التلاقى بين الصهاينة والامبرياليين).

١٢ — معاداة السامية والعناية الالهية

ان نقطة البدء الفكرية لمعاداة السامية هى الافتراض القائل بأن اليهودى ليس له وجود فردى مستقل عن أمته ، وأن اليهود كأمة يمثلون عنصرا غريبا عالميا ليس له جذور محسوسة وليس له ولاء محدد ، وأنهم لهذا السبب يمثلون خطرا حضاريا واقتصاديا على أية جماعة انسانية يعيشون فيها ، ويوجد فى الغرب تراث حضارى كامل تشكل معاداة السامية أساسه الفكرى .

---

(١) نفس المرجع ٦٢ — ٦٣ .

(٢) بن هرمان ، « الصهيونية والاسد » فى **الصهيونية واسرائيل والعرب** ٢٦

(٣) الفريد ليلنتال **ثمن اسرائيل** (شيكاغو : هنرى رجنرى كومبانى ١٩٥٣) ٢٢ .

على الرغم من ذلك آمن المسكيليم أن معاداة السامية ظاهرة اجتماعية مؤقتة فى طريقها الى الزوال التدريجى كنتيجة طبيعية لسيادة العقل وانتشار الاخاء والمساواة . وقد آمن المسكيليم أيضا بأن الجوهر الانسانى لليهودى لا يختلف عن جوهر أى انسان ، وبهذا يكون اندماجه فى الجماعة الانسانية شيئا ممكنا ومرغوبا فيه .

ولكن هذا التصور العقلانى لشخصية اليهودى يتعارض وبشكل حاد مع تصور الصهاينة اليهودى على أنه شخصية فريدة تقف خارج التاريخ ، ولو دققنا النظر فى الموقف الصهيونى من اليهود لوجدنا أنه يتقابل الى حد كبير مع موقف المعادين للسامية . فالصهيونية ترى اليهود على أنهم أمة واحدة رغم تشتتهم آلاف السنين فى كل أصقاع الأرض ، وأنه لا توجد أى فروق جوهرية بين اليهودى الأمريكى و « أخيه » الحبشى ، والفكر الصهيونى بهذا يلغى فردية اليهودى ويجرده من انسانيته المحسوسة ، ويقسم العالم الى الدائرة اليهودية المغلقة والجوييم ، وهذا هو جوهر معاداة السامية .

واليهودى على حد قول بوبر شخصية « فريدة » لا يمكن فهمها ولا يمكن استيعابها ، ولذا لا يمكن اندماجها مع بقية الأمم (٣٣٠). والايمان باستحالة الاندماج الكامل هو من المبادىء الرئيسية للصهيونية كما يقول كلاتزكين (٢٠٥) ، بل انه يعد الاندماج « جريمة وخطيئة وعارا » يحط من كرامة اليهود « الانسانية الفردية » (٢١١) . أما نحمن سيركين فيعبر عن شديد ثقته من أن البروليتاريا اليهودية ستقاوم « سم الاندماج » الذى تسرب اليها (٢٣٠). ويعتقد موسى هس أنه لا يمكن لليهودى أن يفر من تميزه وانتمائه للشعب المختار المضطهد : « يختبىء هؤلاء اليهود العصريون [المندمجون] من مسرح جريمتهم وراء مواقعهم الجغرافية أو وراء آرائهم الفلسفية عبثا ... قد تقنع نفسك تحت الف قناع وقد تغير اسمك ودينك وطباعك وقد تسافر حول العالم متخفيا وذلك لكى لا يكتشف الناس أنك يهودى ، لكن أية اهانة موجهة للاسم اليهودى ستؤلمك بحدة تفوق ايلامها ذلك الرجل المخلص ليهوديته والمدافع عن شرف الاسم اليهودى »(٢٤) . وحتى لو أراد اليهود الاندماج ، فان هذا الأمر — حسب التصور الصهيونى — مستحيل

لان الجوييم يقفون بالمرصاد ، « رعاعهم المتوحشون يقفون كالذئاب التى تبحث عن فريستهـا » (كما يقول سمولنسكين) (٤٧) . والشعب اليهودى ضحية عنف الجوييم يعيش « كقطيع أو كجماعة من العبيد ... هدف كل سوط ... قطيع يرفض الناس أن يدخلوه حتى الى الاصطبل » (٣٤٦) على حد قول برنارد لازار Bernard Lazare (١٨٦٥ ــ ١٩٠٣) الكاتب الفرنسى الصهيونى .

وسبب هذه الظاهرة أن معاداة السامية لها وجود ميتافيزيقى ثابت أزلى ، فيهودية اليهود « مثل ختم قايين على جباههم ، انها العلامة الأبدية التى كان ينفر منها غير اليهود والتى كانت سبب تعاسة لليهود انفسهم » (٨٣) . ان موقف الجوييم من اليهود ــ حسب تصور بنسكر ــ يتسم بكره « أفلاطونى » زادت ألف سنة من حدته فأصبح معها « مرضا مستعصيا » (٨٤) .

ووصف معاداة السامية بأنها مطلق « أفلاطونى » و « مرض مستعصى » هو وصف يلغى الوعى الانسانى الأخلاقى وينفى مقدرة الانسان على التحكم فى مصيره وفى بيئته وذاته . ان المرض الاخلاقى نتاج الاختيار الانسانى يتحول الى مرض بيولوجى يصيب المرء الذى لا حول له ولا قوة ولا ارادة ، كما تتحول الظاهرة التاريخية نتاج الممارسة الانسانية الى مطلق أفلاطونى ثابت لا يتغير . والافتراض المستتر هنا هو أن قوانين الطبيعة تنطبق على الأمور الانسانية الاخلاقية ، وهذا افتراض داروينى مسطح يذكرنا بمفهوم هس للتاريخ وبالرؤية النازية ، كما أنه على المستوى الفلسفى فيه لمسة من وحدة الوجود التى تعادل بين الانسان والأشياء والطبيعة. نفس هذه القدرية والحتمية توجد فى وصف وايزمان لمعاداة السامية بأنها مثل البكتريا التى تكون ساكنة أحيانا ، ولكن حينما تسنح لهـا الفرصة فانها تعود للحياة . وهذه الرؤية المنحطة للنفس البشرية تفترض أن كل الجوييم مصابون بهذا النوع من البكتريا الأخلاقية . ويخبرنا كروسمان الزعيم العمالى البريطانى الصهيونى بأن وايزمان أصبح صديقه الحميم حينما اعترف له كروسمان بأنه « بالطبع معاد للسامية » . لو قال كروسمان غير هذا فانه من وجهة نظر وايزمان القدرية « الكيمائية » يكون اما كاذبا على

نفسه أو على الآخرين » (١) . ولأن معاداة السامية ظاهرة لها ثبات المثل الافلاطونية وسرمديتها فهى تنتشر كالأوبئة التى لا تتغير طبيعتها بمرور الزمن ، فالبكتريا هى البكتريا والطاعون هو الطاعون فى كل زمان ومكان . ولهذا السبب لا يميز الصهاينة بين معاداة السامية الدينية التى وجدت فى بعض أجزاء أوروبا فى العصور الوسطى ومعاداة السامية العنصرية التى تستند الى النظريات العنصرية الحديثة . بل انهم يصفون معاداة العرب للغزو الصهيونى بأنها معاداة للسامية ، وكذا مكافحة الحكومة السوفيتية للاتجاهات البورجوازية الصهيونية بين صفوف اليهود السوفيت . اذا كانت ذات اليهودى مطلقة فعداوة الجوييم له ، بغض النظر عن ظروفها التاريخية وأصولها الحضارية وأسبابها السياسية ، لابد أن تكون هى الأخرى مطلقة . والقصة التى يرويها الحاخام سولومن شختر فى مطلع مقاله عن الصهيونية هى خير مثال على التصور الصهيونى اللاتاريخى لمعاداة السامية . وبطل القصة يهودى ألمانى من الجيل القديم ، جاءه أصدقاؤه فى بداية ثمانينات القرن الماضى وسألوه عن رأيه فى الهجمات الجديدة على اليهود ، فأجاب بكل دهشة : « أنها ليست بجديدة ، انها الهجمات القديمة نفسها » (٣٧٤) .

وقد يصبح المفكر الصهيونى أكثر حنكة فى موقفه من عالم الجوييم الا أن رؤيته تظل أولا وأخيرا هى نفسها الرؤية القديمة المطلقة : الحمل اليهودى بين ذئاب الجوييم (١٦٢) . وتقسيم عالم الجوييم الذى توصل له المؤتمر الصهيونى الأخير ان هو الا محاولة لاضفاء غلالة من العلمية والعلمانية على موقف هو فى صميمه صوفى ولا تاريخى . فقد قسم المؤتمرون دول العالم من وجهة نظر أوضاع اليهود فيها الى ثلاثة أنواع :

أولا : دول الاضطهاد والضيق (الإتحاد السوفيتى والدول العربية بطبيعة الحال) ، ولا حل للمشكلة اليهودية فى هذه البلدان الا عن طريق الهجرة الفورية .

---

(١) رولاند بوتشتى ، «الجتو الاخر : وجهةنظر ليبرالية فى الصهيونية واسرائيل»، محاضرة ألقيت فى ندوة فلسطين الدولية فى القاهرة ٣٠ مارس ــ ٥ أبريل ١٩٦٥ .

ثانيا : دول مثل دول أمريكا اللاتينية تقف على عتبة تغيرات سياسية ستؤدى فى نهاية الأمر الى خلق ظروف غير مواتية لليهود، وحل المشكلة يكون باقناع اليهود بالهجرة .

ثالثا : دول العالم الحر التى لا يمكن اقناع اليهود بالهجرة منها (وهذا وضع يقبله بعض الصهاينة صاغرين ، وان كان بعضهم مثل بن جوريون يكافح ضـــده بكل صلابة) . وحل مشكلة اليهود فى هذه البلاد يكون عن طريق استمرار الكيان اليهودى فيها . ولا تعدم أن تجد بعض الصهاينة الذين يساوون بين هذه الدول الحرة ودول القسم الثانى بمعنى أنهم يرون أن دول القسم الثالث تتهددها هى الأخرى الفاشية ومعاداة السامية . بل ان الصهيونيين الاشتراكيين يروون أن الذئاب الامبريالية تعد أفران الغاز ومعسكرات الاعتقال للحملان اليهودية الأمريكية !

ولكن سواء كانت المخاوف الصهيونية بخصوص اليهود السوفييت تأخذ طابعا ليبراليا ، بينما تأخذ هذه المخاوف بالنسبة ليهود أمريكا طابعا اشتراكيا فانه يجب أن نتذكر أن الوجدان الصهيونى الهيجلى يساوى فى نهاية الأمر بين « تدمير » اليهود عن طريق معاداة السامية (فى دول الضيق رأسمالية كانت أم اشتراكية) واذابتهم عن طريق الانعتاق (فى دول الانعتاق رأسمالية كانت أم اشتراكية أيضا) . فالتصفية والاندماج من وجهة النظر الصهيونية المجردة متعادلان اذ أنهما سيؤديان فى نهاية الأمر الى نفس الشىء : اختفاء الكيان اليهودى الفريد . وتتضح هذه الفكرة فى مقال الصحفى والزعيم العمالى الصهيونى بيرل كاتزنيلسون Berl Katzenelson (١٨٨٧ — ١٩٤٤) المعنون « الثورة والتقاليد » حيث يقول : « ما دامت اسرائيل مشتتة وتعيش فريسة للاضطهاد والحقـــد والاحتكار وتغيير الدين قسرا ... ومادام بعضنا يمارس الانعتاق الذى يصلون اليه عن طريق اندماجهم كما فى فرنسا الرأسمالية وروســـيا الشيوعية ، فانى لن أنسى ولن أستطيع أن أنسى يوم مصيرنا المخيف ، يوم دمارنا » (٢٧٧).وكلمة **الدمار** هنا تشير الى افتراس اليهود على أيدى الجوييم والى اندماجهم اما بالطـــرق الليبرالية الفرنسية العفوية أو الطرق الشيوعية الموجهة . أى أن

هيجيلية كاتز نيلسون وصلت الى درجة جعلت كل التفاصيل التاريخية المختلفة لا معنى ولا دلالة خاصة لها لأنها متشابهة ، وتؤدى فى نهاية الأمر الى نفس الشيء .

ولكن التفكير الصهيونى يتسم بعلاقة حب وكره لليهودية ، وبطبيعة الحال يتضح هذا فى الموقف الصهيونى من اليهودى . فعلى الرغم من تقديس الصهيونية لليهود واليهودية ، نجد أنها تنتقد الشخصية اليهودية مستخدمة اصطلاحات تراث معاداة السامية فى الغرب . وهذا الموقف من اليهودى يتسق منطقيا مع موقف الصهيونية من التراث اليهودى . فان كان تراث اليهودية فى المنفى منحطا ، فاليهودى هو خالق هذا التراث ونتاجه . وبالفعل فاننا نجد اشارات عديدة فى الكتابات الصهيونية الى شخصية اليهودى « المريضة » (كما يقول برنر) ، بل انه ليذهب أبعد من هذا ليقول : « ان مهمتنا الان هى فى أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا ، وبكل نقائص شخصيتنا » (٢٠٠) . فاليهود يودون الحياة حتى « كالنمل أو الكلاب » (١٩٥) وفى رواية أخرى لنفس الكاتب « كالكلاب والمرابين » (١٩٦) ، شعب لا يعرف أفراده « سوى الأنين والاختفاء حتى تهدأ العاصفة ، يدير ظهره لاخوانه الفقراء ، ويكدس دراهمه ، ويتجول بين الجوييم ليؤمن معيشته بينهم، ثم يقضى نهاره يشكو من سوء معاملتهم له » (١٩٥). ان نمو اليهودى شاذ غير طبيعى بسبب ملاحقته أمور الدنيا ، ولأنه يحيا حياته فى السوق متبعا « قيم هذا المكان وحدها » (٢٥٩) ، يعقد « الصفقات التجارية التى تتم بمهارة » (٢٦٢) . ان اليهودى ، كما يرى غوردون ، « شخص غير طبيعى » ناقص ، منقسم على نفسه (٢٦١) ، ويهود الدياسبورا « شعب نصف ميت » مصاب بطاعون التجول (١٩٧) على حد قول برنر ، أما كلاتزكين فيتحدث عن « شعب شوه جسده وروحه تشويها مرعبا » (٢٠٨) . ويصف هس اليهودى بأنه انسان « له أنف يهودية لا يمكن استصلاحها ، وشعره أسود متموج لا يمكن تحويله الى شعر أشقر أملس » (٢٣) (ولكننى أعرف يهودا شقرا فىالولايات المتحدة لهم أنوف بروتستانتية صغيرة مستقيمة،أنوف هى ولاشك نتاجمجتمع الجوييم الامبريالى). وفى مذكرات اسرائيل سنجر الكاتب البولندى الصهيونى نجد

اشارات لليهود «المحدودبين» الذين يعيشون فى القانورات(١) ، اما نوردو فقد وصف اليهود بأنهم مترهلو العضلات .

والصورة التى يرسمها الصهاينة لليهودى على أنه شاذ وتاجر طفيلى هامشى لا جذور له ، مشوه الجسد والروح ، محدودب الظهر ، مترهل العضلات أنفه كبير مضحك وشعره أسود مجعد ، شبح ميت يسير بين الأحياء — هذه الصورة تطابق تلك التى يرسمها فلكلور معاداة السامية لليهودى . ويبدو أن نقد الصهاينة ليهود الدياسبورا ينطلق من الاتهامات العنصرية التى واجهوها هم كيهود فى حياتهم اليومية . وقد لاحظ المفكر اليهودى كاوفمان الذى رفض الصهيونية بعد انخراطه فى سلكها بعض الوقت ، هذا التطابق بين موقف المعادين للسامية والصهاينة . فقد لاحظ أن الكتب التى يدرسها التلاميذ اليهود فى المدارس العبرية فى فلسطين تتضمن مثل هذه العبارات : « أن اليهود فى المنفى يعيشون حولهم هم الذين يعيشون حياة صحية ... ان اليهود ان واحيانا من الداخل ... أخلاقهم ناقصة ... ان غير اليهود الذين يعيشون حولهم هم الذين يعيشون حياة صحية .. ان اليهود ان هم الا شعب من التجار وأصحاب البنوك والسماسرة » . وقد رد أحد الصهاينة ويدعى يافنيلى على اتهام كاوفمان قائلا : « نعم ان اليهود بالفعل شعب طفيلى » . وقد سمى يافنيلى نفسه صهيونيا معاديا للسامية ، ثم أضاف قائلا : « كيف يتسنى لأى صهيونى الا يتخذ نفس الموقف » ؟

ان معاداة السامية اذن شىء منطقى حتمى ، بل انها من وجهة نظر يافنيلى خير خالص لأنها ستساعد على تحقيق هذا المثال الأزلى ، هجرة اليهود من الدياسبورا وانتهاء حياة الشتات وتحقق العودة : « ان الهسكلاه (بانتقادها لشخصية اليهودى) قد ضاعفت من حدة معاداة السامية بين الشعوب غير اليهودية . اذا كان الأمر كذلك ، فمعاداة السامية اذن مرسلة من لدن الله اسرائيل ، حيث

---

(١) مايكل سلزر ، تحول الدولة الصهيونية الى دولة آرية (نيويورك : بلاك ستاربوك ١٩٦٧) ٣٥ .

ان الهسكلاه هى التى فتحت الباب لعملية البعث اليهودى »(١) .
وهكذا دخلت معاداة السامية الدائرة اليهودية ولفحتها لفحة من القداسة .

١٣ ــ العنف

كما بينا من قبل تمرد الصهاينة على سلبية التراث اليهودى وعلى عدم أكتراث اليهود بما يحيق بهم من كوارث . ولذلك نادوا بأن يتمرد اليهودى على وضعه وألا ينتظر وصول « المسيح المنتظر » الذى سيأتى بالخلاص ، بل ينبغى أن يعمل هو ــ بكل ما لديه من وسائل ــ على العودة الى أرض الميعاد عن طريق السلب والنهب والعنف العلمانى . ولهذا السبب حاول الصهاينة أحياء تقاليد العنف الجسدى بين اليهود لأن سنين النفى الطويلة كانت قد قضت عليه (أقول العنف الجسدى لأن العنف الفكرى فى التراث اليهودى لم يهن ولم يضعف طوال سنين النفى ، بل أن الجتو زاد من ضراوته وحدته) .

يقول ماكس نوردو أن اليهودى فقد كل عضلاته اليهودية خلال ثمانية عشر قرنا من النفى أصبح فيها مترهل العضلات ، ولذلك اقترح نوردو أن يقلع اليهودى عن قهر جسده وأن يعمل على تنمية قواه الجسدية وعضلاته أسوة « بذلك البطل باركوخبا آخر تجسيد على صعيد التاريخ العالمى لتلك اليهودية فى صلابة عودها المقاتل وحبها لقعقعة السلاح »(٢) .

وقد أعاد الصهاينة كتابة التاريخ اليهودى مؤكدين جوانب العنف فيه ، وصوروا الأمة اليهودية فى نشأتها على أنها جماعة محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة ، فبيرديشفسكى على سبيل المثال ينظر الى الوراء الى الأيام التى كانت فيها « رايات اليهود مرتفعة » ، وينظر الى « الأبطال والمحاربين [اليهود] الاوائل »

---

(١) مايكل سلزر « يهودية الصهيونية » مجلة أشسوز (يونيه ١٩٦٨) ١٢ ــ ٢٢ .
(٢) اسرائيل الكبرى ١٣٣ ــ ١٣٤ .

(١٨٢) ، كما أنه يكتشف أن ثمة تيار عسكرى يسرى فى التراث اليهودى ، فالحاخام اليعازر قد بين أن « السيف والقوس همــا زينة الانســـان » ولذا فمسموح أن يظهــر الانسان بهمــا يوم السبت (١٨٦) . وأعطى الصهاينة دلالة خاصة لحادثة ماسادا التى فضل فيها المحاربون اليهود الانتحار على الاستسلام للغزاة (وحادثة ماسادا رمز الدائرة المنغلقة على نفسها ، تسيطر على الوجدان الشعبى الاسرائيلى ، ويتكرر ذكرها فى الصحف والمجلات الاسرائيلية والصهيونية) . هذه الرؤية للتاريخ تتضح فى خطاب جابوتنسكى لبعض الطلاب اليهود فى فينا حيث أوصاهم بالاحتفاظ بالسيف « لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكارا ألمانيا بل انه ملك لأجدادنا الأوائل .. **أن التوراة والسيف أنزلا علينا** من السماء»(١) ، (وتصـــور جابوتنسكى للسيف المرســـل من السماء هو امتداد للتصور اليهودى القديم للنبى الغازى الذى أبرزته المقدســـات القومية) . وقد تبع مناحم بيجين أساتذه جابوتنسكى فى تأكيده أهمية العنف فى التاريخ اذ يقول : « ان قوة التقدم فى تاريخ العالم ليست السلام بل السيف » (١) . ويبدو أن هذا الضرب من التقدم قد وصل ذروته فى الدولة اليهودية لأن موشى ديان يرى اسرائيل مرتكزة على السيف : « هذا هو قدر جيلنا ، وخيار حياتنا ، أن نكون مستعدين ومسلحين ، أقوياء غلظاء ، والا سوف يسقط السيف من قبضتنا ، وحينئذ تنتزع حياتنا » (من الخطـــاب الذى ألقاه فى جنازة روى روتنبرج ، وليلاحظ القارىء قدرية ديان وبقية الصهاينة وهى قدرية متسقة منطقيا مع عدم ايمانهم بمقدرة العقل على تشكيل الواقع).

ويبدو أن السيف ، رمز الذكورة والقوة والعنف ، كان محبوبا وأثيرا لدى الصهاينة وقد لاحظنا أن بيجين حول السيف الى محرك للتاريخ (وهذه هى مهمة الله حسب التصور اليهودى القديم) أى أن السيف يكاد يكون هو المطلق أصل الكون وكل الظواهر .

---

(١) لطفى العابد ، **العنف والسلام فى اسرائيل** ، **دراســـة فى الاستراتيجية الصهيونية** (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ١٩٦٧) ١١ .

(٢) بربارة حداد ، « فلاديمير جابوتنسكى » ، **شئون فلسطينية** (نوفمبر ١٩٧١) ٧٩ — ٩١ .

ولا يتردد بيرديشفسكى (الذى تأثر بنيتشـــه وبفكرة السوبرمان) من أن يصرح بما هو مستتر فى كلمات بيجين . رفض بيرديشفسكى التاريخ اليهودى الذى يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود وأخلاقيات العبيد ، ونادى بتفضيل الفعل على الفكر وأخلاق السادة على أخلاق العبيد ، والسيف على الكتاب : « الكتاب ليس أكثر من ظل للحياة ، هو الحياة فى شيخوختها ... السيف ليس شيئا مجردا يقف بعيدا عن الحياة أنه تجسيد للحياة فى أعرض خطوطها وهو تجسيد جوهرى ومحسوس يشبه الحياة الى حد كبير » (١٨٥). (ولكن التناقض الذى يتوهم بيرديشفسكى وجوده بين السيف اليهودى والكتاب اليهودى هو فى الواقع مثل توهم بوبر وجود تناقض بين الطبيعة اليهودية والتاريخ اليهودى ، فالطبيعة اليهودية مثل التاريخ اليهودى مطلق ، والسيف مقدس مثل الكتاب فكلاهما كما بين جابوتنسكى وبعض الحكماء اليهود القدامى مرسل من السماء) .

وحتى برانديز الليبرالى الأمريكى الهادىء يقتبس باستحسان شديد هذه الكلمات التى تصف العنف الصهيونى الذى كان لا يزال فى نشأته : « غرست الصهيونية فى الشباب اليهودى الشجاعة فألفوا الجمعيات وتدربوا على الأعمـــال الرياضية وعلى اللعب بالسيف وصارت الاهانة ترد باهانة مثلها ، وفى الوقت الحاضر يجد أفضل لاعبى السيف الالمــان أن الطلبة الصهيونيين يستطيعون أن يدموا الخدود ، كما يفعل التيوتونيون ، وأن اليهود سوف يكونون أفضل لاعبى سيف فى الجــامعة » (٣٩٢) . وبرانديز مثل كاتب هذه الكلمات يفكر فى الطالب الآرى (وحش نيتشه الأشقر) حينما يتحدث عن بطله اليهودى ، وجابوتنسكى هو الآخر كان يفكر فى السيف الالمانى ــ البروسى اللامع . ويبدو أن هذا السيف كان محط اعجاب كل الصهاينة الذين كثيرا ما عبروا عن اعجــابهم وانبهارهم بالعسكرية البروسية الرائعة . وكتابات هرتزل مليئة بعبارات الإعجاب بهذا السيف كما أن ناحوم جولدمان قد تغنى بهذه الروح العسكرية البروسية فى شبابه : « حيث أن ألمانيا تجسد مبدأ التقدم ، نجدها واثقة من النصر . ألمانيا ستنتصر وستحكم الروح العسكرية العالم ، ومن يشأ أن يحزن لظهور هذه الحقيقة ويعبر عن حزنه فله أن يفعل ، ولكن محاولة اعاقة هذه الحقيقة

هو شيء من قبيل العناد وجريمة ضد عبقرية التاريخ » (١) (الذى تحركه السيوف وقعقعة السلاح) . (ولكن موقف الصهاينة قد تغير بعض الشيء حينما هوى هذا السيف البروسي المقيت على الرقاب اليهودية فى اشويتز ومعسكرات الاعتقال الأخرى) .

ورؤيتنا للتاريخ ــ كما بينت من قبل ــ هى فى الواقع برنامجنا السياسى ، وحيث أن الصهاينة أكدوا أهمية السيف والعنف كمحرك للتاريخ فانه من المتوقع أن يكون العنف جزءا أساسيا من برنامجهم السياسي . والصهاينة كانوا منطقيين مع أنفسهم لأنه كي تتحول أسطورة « العودة » الى حقيقة واقعة كان يلزم الحد الأقصى من العنف ، فالتصور الأسطورى لفلسطين كبقعة من الأرض تنتظر عودة « ساكنيها الأصليين » ولليهود كشعب هائم طفيلى حزين يتذكر الأرض بوله ، هذا التصور لم يكن من الممكن تحويله الى واقع دون اللجوء للعنف ضد الفلسطينيين فى أرض الميعاد وضد اليهود فى المنفى . و « تفريغ » فلسطين من العرب فكرة وافق عليها كل المفكرين الصهيونيين سواء كانوا ليبراليين مثل هرتزل أم ارهابيين مثل جابوتنسكى . وقد سيطرت فكرة العنف منذ البداية على وجدان الحالوتسيم أو الرواد الأول الذين « اكتشفوا » فلسطين . فالرائد لم يكن فلاحا وحسب بل كان أيضا الشومير ــ الحارس الذى يدافع عن الأرض التى سرقها . وحيث أن الارهاب كان سلاحا أساسيا ومباشرا « لتحرير الأرض » من السكان الأصليين ، كان من الضرورى تأسيس منظمات لها طابع مزدوج زراعى عسكرى ، حتى تترجم الرؤية الصهيونية نفسها الى واقع .

والعقلية التى تسيطر على اسرائيل هى عقلية العنف ، فهى عقلية تؤمن بأن « قوة الردع المسلحة » والتكنولوجيا الاسرائيلية هما وحدهما القادران على التحدث للعرب(٢) . والعنصرية الاسرائيلية الموجهة ضد عرب فلسطين هى ترجمة يومية لهذا العنف الذى

---

(١) اقتبسها ميرون ميدزينى فى « عرض لسيرة حياة ناحوم جولدمان الذاتية ، ستون سنة من الحياة اليهودية » ، **الجيروزاليم بوست** ١٧ أبريل ١٩٧٠ .

(٢) يورى افنيرى ، « حرب بين أخوة ساميين » فى **الفكر الصهيونى المعاصر** (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ١٩٦٨) ٣٥١ .

يمارسه الشعب الاسرائيلي ككل في حياته اليومية (وأعتقد أن الافاضة في هذا الموضوع سيكون حديثا معادا لأن العالم كله الآن على بينة من حقيقة العنف الاسرائيلي ، فضلا عن أن مناقشة الممارسة الاسرائيلية اليومية تقع خارج نطاق هذه الدراسة) .

بل ان العنف ليمتد ليشمل يهود الدياسبورا الذين يحتقرهم الصهاينة أيما احتقار لرضاهم بوضعهم التاريخي (بالمعنى المألوف للكلمة وليس بالمعنى الصهيوني) . ويأخذ هذا العنف اشكالا عدة ؛ فهناك الارهاب الفكري ضد كل من يرفع صوته ضد الصهيونية ، وهناك أيضا محاولة تقديم الصهيونية على أنها التعبير الحقيقي والوحيد عن اليهودية .

ولكن الأمر يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، ففي أثناء الارهاب النازي ضد اليهود اكتشف الصهاينة أن ثمة تناقضا عميقا بين مصالح الصهيونية كحركة تحاول انشاء الدولة اليهودية وبين النزعات الانسانية التي تسعى لانقاذ اليهود كبشر (وليس كتجمع قومي) . وقد عبر بن جوريون عن هذه الحقيقة في رسالة بعث بها الى اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية في ١٧ ديسمبر ١٩٣٨ حيث قال : « انه اذا طغت الشفقة على نفوس اليهود واتجهت كل طاقاتهم **نحو انقاذ اليهود من مختلف البلدان ، لن يؤدي ذلك الا الى تلاشي نفوذ الصهيونية** ... اذا سمحنا لمشكلة اللاجئين اليهود بأن تنفصل عن ... هدف اقامة الدولة اليهودية نكون قد عرضنا وجود الصهيونية نفسه للزوال » (١) ، أي أنه كان على الصهيونية الاختيار بين الانسان اليهودي والمثال الصهيوني وهي لم تتردد في اختيار الأخير (ولهذا لم يقم الصهاينة بأي مجهود لمساعدة اليهود بل ركزوا كل جهودهم على تشجيع الهجرة الى أرض الميعاد) .

والصهيونية في اختيارها كشفت عن ولائها للافكار والمثاليات غير التاريخية وهذا هو سر اعجاب ايخمان بالصهيونية . فهو على حد قوله كان مثاليا والمثالي ليس هو الانسان الذي يؤمن بفكرته

---

(١) ليلى سليم القاضي ، **المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية ، ماتسبن** (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ١٩٧١) ٥٥ .

وحسب ، بل هو الرجل الذى يعيش من أجلها ولذلك فهو على استعداد للتضحية بكل شيء بل وبالجميع من أجل تحقيقها(١). هذه المثالية هى التى جعلته يكره اليهود الارثوذكس (الذين يقبلون واقع الجتو المتخلف دون تساؤل) كما كان يكره اليهود المندمجين (الذين يحاولون تحسين أوضاعهم عن طريق قبول واقعهم التاريخى الجديد). ولعله مما يجدر ذكره هنا أن العدو الرسمى للدولةالنازية لم يكن الصهاينة وانما جماعة يهودية يدل اسمها على اتجاهها الاصلاحى « الجماعة المركزية للمواطنين اليهود من اتباع العقيدة اليهودية »(٢) . كان الهدف الأساسى لهذه الجماعة هو محاربة معاداة السامية وبالتالى الدولة النازية ، أما الصهاينة فلم يكن هدفهم محاربة معاداة السامية من قريب أو بعيد (لأنهم يرفضون وجود اليهود بين الجوييم اساسا) ، وانما كان الهدف الصهيونى هو ترحيل أكبر عدد ممكن من اليهود لتحقيق المثل القومية ــ الأمر الذى يتفق تماما مع الأهداف النازية .

كان ايخمان اذن يفضل التعاون معالصهاينة لمثاليتهم وقوميتهم(٣) (وكم كان شديد الاعجاب بهذا الطراز الجديد من اليهود)،وحينما تولى مسئولية الاشراف على اليهود أوصاه رئيسه بقراءة انجيل الصهيونية كتاب هرتزل **الدولة اليهودية** ، وفور انتهائه من قراءة الكتاب أصبح ايخمان ــ على حد قوله ــ صهيونيا يطالب بوضع « شيء من الأرض الراسخة تحت أقدام اليهود » (٤). « شيء من الأرض الراسخة بلا شعب ، لشعب بلا شيء من الأرض الراسخة »! (وقد بلغ من اعجاب ايخمان بهرتزل أنه عبر عن استيائه الشديد من الذين دنسوا مقبرته وشوهوها) (٥) .

ولم يكن ايخمان صهيونيا فكريا وحسب (مثل بعض الصهاينة الأمريكيين المترفين) ، بل كان صهيونيا حقيقيا وفعالا على استعداد للعمل من أجل تحويل العودة الى حقيقة وواقع . وقد دعاه بعض

---

(١) **ايخمان فى أورشاليم ٤٢ .**
(٢) نفس المرجــع ٥٦ .
(٣) نفس المرجــع ٥٧ .
(٤) نفس المرجع ٤١ .
(٥) نفس الصفحة .

الصهاينة لزيارة الكيبوتزات فى فلسطين محاولين بذلك كسبه لصفهم ، وبالفعل وصل الى حيفا ولكن السلطات الانجليزية رحلته على الفور(١). وقد ساعد ايخمان الصهاينة على تأسيس معسكرات تدريبية للمهاجرين اليهود ، بل انه طرد مرة مجموعة من الراهبات من ديرهن حتى يزود بعض الشباب اليهود بمزرعة يتدربون فيها(٢). كما أن ايخمان عقد صفقة مع واحد من أكثر اليهود مثالية ــ رودولف كاستنر ــ الصهيونى المجرى ، وبموجب هذه الصفقة وافق ايخمان على السماح بترحيل بضعة آلاف من اليهود الى فلسطين بصفة غير قانونية (يهود « من أفضل المواد البيولوجية » حسب تعبيره ، مواد ظهر فيما بعد أنها صهيونية) فى مقابل أن تتم عملية شحن يهود المجر فى نظام الى المانيا ، وفى مقابل أن يسود الهدوء معسكرات الاعتقال(٣). (وثمة نظرية تقول أنه كان من المستحيل على النازى شحن هذه الآلاف المؤلفة من اليهود دون تعاون القيادات اليهودية نفسها) . لكل هذه الاسباب لم يتردد ايخمان فى أن يسمى نفسه « صهيونيا » أثناء محاكمته فى تل أبيب .

ويأخذ العنف الصهيونى ضد يهود الدياسبورا أحيانا شكل العدوان المباشر ، فقد اثبتت التحقيقات أن حوادث الارهاب ضد يهود العراق عام ١٩٥١ (والتى تسببت فى تشتيت أقدم جماعة يهودية فى العالم) قام بها دعاة الصهيونية بينهم : لقد كانت قنابل الصهاينة تقعقع فى بغداد لحمل اليهود على الهرب الى فلسطين ، بينما كانت رشاشاتهم ترهب عرب فلسطين للهرب منها ، وذلك حتى تكتمل دائرة وحدة الوجود اليهودية ويعود شعب التوراة لأرض التوراة ليعيش متمركزا حول التوراة .

ولاتزال الصهيونية واعية بالتناقض بين مصالحها ومصالح يهود الدياسبورا ، فحينما حاول أحد أعضاء الكونجرس الامريكى المساهمة

---

(١) نفس المرجع ٦٢ .
(٢) نفس المرجع ٦٠ ــ ٦١ .
(٣) نفس المرجع ٤٢ .

فى « حل مشكلة » اليهود السوفيت وفى « التخفيف » عنهم بفتح باب الهجرة امامهم ، لم يؤيد الصهاينة مساعيه ، ولم يقدر لمشروعه الحياة . ولا أدرى ان كان عضو الكونجرس هذا ســانجا لدرجة البلاهة ، أم ماكرا الى ابعد الحدود ؟ هل كان بالفعل يريد « انقاذ » اليهود السوفيت أم « احراج » الصهاينة ؟

ولكن العنف بالنسبة للصهاينة ليس وسيلة فحسب ، بل هو غاية فى حد ذاته . فاليهودى كأنسان ــ حسب التصور الصهيونى ــ يحتاج لممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه ومن ذاته الطفيلية الهامشية . كان بن هخت الكاتب اليهودى يشــعر بعيد فى قرارة نفسه فى كل مرة يقتل فيها جندى بريطانى ، لأنه ولاشك كان يتحرر من مخاوفه ويولد من جديد ــ تماما مثل شارلوت كورداى فى قصيدة جابوتنسكى المعنونة « شارلوت المسكينة » . فشارلوت تتخلص من رتابة حياتها وسخافتها وتروى تعطشها للعمل البطولى بأن تقوم « بالفعل » : تسدد الضربة الى جان مارا فترديه قتيــلا وهو فى الحمام (١) . العنف هنا يصبح مثل الطقوس الدينية التى تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصــل أحد افرادها ســن الرجولة (فاليهودى حينما يقوم بهذا الفعل الذى كان يخاف منه أجداده ، ذبح أحد افراد الجوييم ، يتخلص من مخاوفه ويصبح جديرا بحمل رمز الذكورة) . وهذا الجــانب من الفــكر الصهيونى يتضح فى كتاب **الثورة** الذى كتبه مناحم بيجين زعيم حزب حيروت الاسرائيلى . يقول فيلسوف العنف :

« أنا أحارب ، اذن أنا موجود .

«من الدم والناروالدموع والرماد سيخرجنموذج جديدمنالرجال، نموذج غير معروف البتة للعالم فى الألف وثمانمائة سنة الماضية : اليهودى المحــارب أولا وقبل كل شىء ، يجب أن نقوم بالهجوم : نهاجم القتلة .

« بالدم والعرق سينشأ جيل متكبر كريم قوى » (٢) .

---

(١) **اسرائيل الكبرى ٤٧٢ .**
(٢) **تدهور اليهــودية ١٠٠ .**

وهذا الحديث الرومانسى يشكل الاساس الفلسفى لتفكير بعض قادة اسرائيل من الليبراليين والاشتراكيين ، الذين يؤمنون بأن الحرب مع العرب ليست وسيلة لضم الأرض وللتخلص من الفلسطينيين وحسب ، بل هي أيضا الطريقة الوحيدة لتأسيس الحضارة الاسرائيلية ولتحرير اليهودى من الخوف ولاعادة صياغته ليصبح ذلك الطرزان اليهودى الجديد ، المواطن الاسرائيلى ، الحاخام الفلاح المحارب ... نتاج لاعقلانى لنقطة بدء لاعقلانية .

وفى ختام هذا الجزء لابد وان نشير الى أن مجموعة من الصهاينة مثل احاد هعام ويهودا ماجنس ومارتن بوبر قد عارضوا العنف الصيهونى ونادوا بالأخوة العربية اليهودية وبالدولة مزدوجة القومية . ورغم صدق نوايا بعض هؤلاء المفكرين (والنوايا شيء يحكم عليه الله وحده) الا أن ثمة تناقص أساسى فى فكرهم ، فهم لم يتنبهوا عن وعى أو عن غير وعى الى أن البنية الاسطورية للفكر الصهيونى الذى يؤمنون به لابد ان تؤدى حتما الى العنف ، وان الاخلاقيات التى يؤمنون بهـا كأفراد ان هى الا زخارف وليس لها أية فعالية حقيقية ، كما انها تتناقض بشكل جوهرى مع بنية أفكارهم ذاتها . ويهودا ماجنس أول رئيس للجامعة العبرية هو أصدق مثل على هذا النوع من الصهاينة طيبى القلب . فماجنس يؤكد انه بالنسبة لليهود « لايمكن للغاية مهما سمت أن تبرر الواسطة الدنيئة » (٣٢٣) ولذا فهو مطمئن الى أن اليهود لن تسمح لهم انفسهم بغزو أرض الميعاد على طريقة يشوع بن نون الذى فتـح كنعان (وأباد سـكانها) ، والذى ثبت الوجود اليهودى عن طريق « السيف » (٣٢٥) . وماجنس كان من المؤمنين انه « لايمـكن تأسـيس الوطن اليهودى عن طريق كبت الطموح السياسى للعرب ... لأن مثل هذا الوطن سيؤسس على رؤوس الحراب لمدة طويلة » (٣٢٤) . ولذلك فقد اقترح التغلب على الصعاب التى تواجه الصهاينة بواسطة جميع الأسلحة التى وضعتها الحضارة تحت تصرفهم ــ باستثناء الحراب ــ « مثل الاسـلحة الروحيـة والثقافية والاجتماعية والمالية والاقتصـادية والطبية ... والاخوة والصداقة » (٣٢٥) ويستحسن الابتعاد عن النابالم .

ولكن ماجنس ــ مثل أحاد هعام ــ لم يحل التناقض الاساسى

الذى يواجهه طيبو القلب من الصهاينة . ان لم يمكن أن تتم « العودة » عن طريق الوسائل الاخلاقية الحديثة وذلك بسبب عناد « السكان الاصليين » غير اليهود ، فما العمل ؟ الاجابة منطقية وواضحة وحتمية فبنية الافكار الصهيونية الاسطورية تنطوى على الحد الاقصى من العنف لتجاهلها كل تفاصيل الواقع المحسوسة . وأن رفض ماجنس هذا العنف بشكل فردى فهو يكون مثله فى هذا مثل الفيلسوف الالمانى نيتشه طيب القلب هو الآخر الذى لم يكن يتحمل رؤية الدم ، وعلى الرغم من ذلك فان فكره يشكل الاساس الفلسفى للفكر الفاشى فى العصر الحديث ، وهو الفكر الذى ادى فى نهاية الأمر الى اقامة أفران الغاز التى لو قدر له هو نفسه رؤيتها لوقع مغشيا عليه من هول ما رأى .

وقد قام ماجنس بتأسيس حزب أو جماعة « احود » (التى انضم لها مارتن بوبر) وذلك للدفاع عن حقوق العرب فى فلسطين ، ولتوطيد أواصر الصداقة بينهم وبين اليهود ، ولنشر فكرة الدولة ذات القوميتين ولكن لم تكلل مساعيه بالنجاح ، تماما مثلما فشل احاد هعام من قبله ومارتن بوبر من بعده فى ايقاف العنف الصهيونى — احاد هعام الذى تأثر بنيتشه وهاجر الى أرض الميعاد وفزع من رؤية المذابح التى يقوم بها الصهاينة ضد العرب ، ومارتن بوبر المفكر النيتشوى النزعة الذى كان يدعو للأخوة العربية اليهودية ، ولكنه فى الوقت ذاته يتحدث عن أمة الروح والحق المقدس فى أرض الميعاد ، ويقطن فى بيت عربى اضطر أصحابه للرحيل عنه تحت ضغط الارهاب الصهيونى ، ويقطنون الآن فى منزل يقع خارج أرض الميعاد .

١٤ — الصهيونية والنازية : رؤوس موضوعات

وصف ايخمان نفسه بأنه « صهيونى » ، وهو كان صادقا الى درجة ربما لم تطرأ له هو نفسه على بال لأن تلاقى الصهيونية بالنازية ليس تلاق سلوك وحسب بل هو تلاق فكرى تمتد جذوره الى أصولهما الفكرية والى بنية رؤيتهما للواقع — بنية وحدة الوجود .

فالصهيونية تصدر عن تصور اسطورى للواقع ، اذ أن راديكاليتها (مثل علمانيتها) راديكالية لاعقلانية فاشية ، تماما مثل

راديكالية النازية التى بنت برنامجها السـياسى على مجموعة من الاساطير العرقية وشبه التاريخية البراقة (التى تشبه الى حد مثير للدهشة الاساطير اليهودية) وجندت وراءها الجماهير الجرمانية وقادتها الى حتفها . ونحـن نسمى هـذه الحركات السياسـية بالراديكالية نسبة الى الكلمة اللاتينية « رادكس » radix والتى تعنى « جذر » . وكلا الصهيونية والنازية تقدمان حلولا « جذرية » شاملة للمشاكل التى يواجهانها ، ولكن هذه الحلول فاشية لأن جوهرها الاسطورى زائف غير حقيقى لا يستند الى تحليل موضوعى للواقع الاجتماعى أو التاريخى ولذا فهى تتطلب من التابع والمريد تقبلا لا عقلانيا وعاطفيا لمعطيات لا وجود لها الا فى مخيلة أحد الحالمين من انصاف الانبياء والكهنة .

وقد اثرت النظريات العرقية المختلفة ـ خاصة الحركةالجرمانية الجامعة أو الشاملة Pan-Germanic ـ على الفكر الصهيونى والنازى (والحركات القومية الجامعة حينما تأخذ شـكلا متطرفا لاتاريخيا تطابق فى بنيتها فكرة وحدة الوجود) . وقد لخص هانز كوهن منطلق الحركة الجرمانية الشاملة فى هذه الكلمات : « تقوم هذه الحركة على الفكرة القائلة بأن جميع الاشخاص المنحدرين من العرق الالمانى ، أو تربطهم قرابة الدم والاصل الالمانى ، حيثما وجدوا والى أى دولة ينتمون ، يكنون ولاءهم الأول لألمانيا ويجب أن يصبحوا مواطنين فى الدولة الالمانية ، وطنهم الحقيقى . قد يكونون نشأوا وترعرعوا ، هم وآباوهم وأجدادهم ، تحت سماوات أجنبية وفى بيئات غريبة ، لكن « حقيقتهم » الاساسية بقيت المانية » (١) .

واثر هذا المفهوم على الفكرة الصهيونية القـائلة بوحدة الشعب اليهودى الصوفية غنى عن البيـان ، فاليهودى يبقى يهوديا فى كل زمان ومكان ولاؤه يتجه بالدرجة الاولى للدولة اليهودية .

والاهتمام الزائد والمتطرف بالدولة (التجسيد السياسى للفكرة

---

(١) اسرائيل الكبرى ٨١ .

المطلقة ولروح الشعب) هى فكرة هيجيلية فى أصلها سيطرت على الوجدانيين الصهيونى والنازى ، بل وسيطرت على الوجدان الصهيونى أكثر من سيطرتها على الوجدان النازى لعدم وجود أى واقع محسوس يتعامل معه الصهاينة .

والصهيونية مثل النازية تعمق فى تابعها كره الغير ، وقد لاحظ الدكتور أسعد رزوق التشابه بين هذا الجانب فى الفكر الصهيونى وفكر الفيلسوف السياسى الالمانى كارل شميث مؤلف كتاب **الرومانتيكية السياسية** « الواسع الانتشار فى الاوساط النازية والفاشية » . ففى كتاب آخر له يسمى **مفهوم السياسة** بين هذا الفيلسوف الالمانى ان كل « تضاد دينى أو أخلاقى أو اقتصادى أو عرقى أو غيره يتحول الى تضاد سياسى متى كان قويا لدرجة تكفى لتجميع الناس بصورة فعالة حول قطبى العدو والصديق »(١)، أى أن التمييز بين العدو والصديق هو أساس صالح لتقييم أى ظاهرة سياسية. والصهيونية التى تدور حول فكرة معاداة السامية وكراهية الجوييم لليهود ، تنظر للظواهر بنفس المنظار الضيق ، وهى بهذا تشارك النازية فى احدى سماتها ربما دون تأثر بنفس المصدر الفكرى ، لأن فكرة معاداة اليهود للجوييم قديمة قدم التراث اليهودى ذاته .

وقد طبق الصهاينة والنازيون آراء داروين فى التطور الطبيعى على التطور التاريخى والاجتماعى ، فكلاهما يؤمن بأن الظواهر الانسانية فى بساطة الظواهر الطبيعية (وهذا يفسر حتمية الفكر الصهيونى) ، كما أن كلاهما يؤمن بأن المجتمع لايحكمه سوى قانون واحد طبيعى لا أخلاقى ، قانون « البقاء للأصلح » ، ولذا يصبح العنف وسيلة مشروعة بل ومنطقية وحتمية ، وتصبح العنصرية نمطا طبيعيا وأساسا « علميا » للحياة .

ومما هو معروف أن داروين نفسه لم يفكر فى يوم من الأيام أن يوفق بين نظريته والدين المسيحى ، وظل طيلة حياته محافظا متدينا يواظب على الذهاب الى الكنيسة ، بعد أن يقضى اسبوعه فى

---

(١) نفس المرجع ٩٧ .

دراساته المختلفة . أما الصهاينة القادرون على الأتيان بكل العجائب فقد حاولوا أن يزاوجوا الداروينية واليهودية ، ففسر بعض مفكريهم التيه في الصحراء على انه التطبيق الرباني لنظرية الاختيار الطبيعي، وبذلك يكون التيه ليس عقابا لليهود على ضلالهم وفسادهم الاخلاقي وانما هو محاولة من جانب الله للقضاء على الضعيف فيهم حتى لايدخل أرض كنعان سوى الاصحاء والسوبرمن (وهنا نجد اسطورة دينية قديمة اخرى ليس لها أي دلالة أخلاقية مثل اسطورة الاصطفاء والميثاق تصبح تصورا داروينيا في منتهى السهولة) . والتصورات المسيحانية وفكرة الاختيار حينما ترتدى رداء علمانيا فانها تكتسب طابعا دارونيا فاشيا . فبن جوريون يتحدث عن الرؤية المسيحانية على انها حقيقة تاريخية ووجود اجتماعي يستطيع اليهود وحدهم تحقيقهما . وهو يستنتج من ذلك تفوق اليهود الاخلاقي والفكري ويشير الى مقدرتهم على أن يـكونوا مثلا يحتذى للجنس البشري كله(١) . والحديث عن مقدرة الأمة اليهودية على البقاء على الرغم من الاضطهاد الذي لحق بها عبر التاريخ والذي فسر قديما على انه بقاء الامة المختارة الصوفي يفسر في العصر الحديث على انه البقاء للأصلح (وليس « للاقدس » كما كان الحال في الماضي) . كما أن تبرير الصهاينة للوجود الاسرائيلي داخل الأراضي العربية على أساس التفوق التكنولوجي وحده ، وليس على أساس أخلاقي، هذا التبرير ينبع هو الآخر من تفكير دارويني اجتماعي فاشي .

والفكر الصهيوني ــ مثل الفكر النازي ــ تعود جذوره الى الفكر الرومانتيكي عامة والالماني على وجه الخصوص :

١ ــ وقد بينا من قبل أن الصهيونية تلغي العقل وتقدس العاطفة وهي في هذا تشبه الفكر الرومانتيكي المتطرف والنازية .

٢ ــ وكلا الفلسفتين النازية والصهيونية تؤمن بوحدة الوجود وبأنه من الخير للانسان ذي الوعي التاريخي الفردي أن يندمج بالفكرة والمثل .

---

(١) الفكرة الصهيونية ٩٤ .

٣ — والتيار النبوى واضح فى الفكر النازى وضوحه فى الفكر الصهيونى ، فالنبى مثل السوبرمان كلاهما يجسد مطلقا ، وصورة النبى العسكرى (بن جوريون والفوهرر) تسـيطر على الوجدان اليهودى سيطرتها على الوجدان النازى .

٤ — كما أن استقطابات الفكر النبوى الذى يتسم بالحرية المفرطة والحتمية المطلقة تسم كلا الفكرين . فالنبى بتجسيده لكلمة الرب ينتمى الى عالم المطلق الذى لا تحده حدود أو سـدود ، ولـكنه بانتمائه لهذا العالم يفقد المقدرة على الاختيار الانسانى كما أنه لا يملك الا أن يجسد كلمة الرب أو الفكرة المطلقة ، اذ أنه يصبح مجرد اداة فى يد المطلق (وهذا الاستقطاب هو أحد سمات الفكـر البورجوازى عامة الذى يدور حول اسـطورة العـودة للطبيعة والانسان الطبيعى) (١) .

٥ — كما أن الجدل المثالى الهيجلى هو مصـدر أساسى للفكر الصهيونى والنازى وللطريقة التى يبرر بها مفكرو كلتا الحركتين برنامجهما السياسى .

٦ — وقد تأثر الصهاينة ، مثل النازيين ، بكتابات نيتشه وفختة وبآرائهما المثالية فى القومية والإرادة المطلقة .

ولنيتشه بالذات تأثير كبير على عديد من المفكرين الصهاينة مثل احاد هعام ومارتن بوبر وبرديشفسكى ، كما أن التشابه بين فكره والفكر الصهيونى مثير حقا للدهشة :

١ — فالنتيشوية مثل الصهيونية هى ديانة علمانية أو لاهوت دون اله .

٢ — كما أن النيتشوية مثل الصهيونية ديانة داروينية تسبغ نوعا من الروحية والقداسة على قانون التطور .

٣ — ومعاداة الفكر واحتقاره وتقديس الفعل يشـكلان تيارا أساسيا فى فكر نيتشه وفى الصهيونية ، وقد أشرنا من قبل الى مدى

---

(١) عبد الوهاب المسـيرى ، « الرأ سـمالية وفـكرة العودة للطبيعـة » ، **الطليعة** (فبراير ١٩٧١) ٦٢ — ٦٩ .

احتقار الصهيونية ليهود الدياسبورا المشتغلين بالاعمال «الفكرية». ان أخلاق يهود الدياسبورا هى أخلاق العبيد أما أخلاق الصهاينة فهى ولاشك أخلاق السادة .

٤ ـــ واذا كان نيتشه قد دعا الانسان لأن يعيش فى خطر وفى حالة حرب وان يبني بيته بجوار البركان ، فان الصهيونية ايديولوجية الريادة المسلحة قد حققت هذه الحياة النيتشوية للمهاجر اليهودى ثم للمواطن الاسرائيلى .

٥ ـــ والفكر النيتشوى مثل الفكر الصهيونى تسرى فيه نزعة قوية من البانثيزم ـــ وحدة الوجود . ان حدود الاشياء ومعالمها فى الكتابات الصهيونية وفى فكر نيتشه تختفى ليحل محلها ضباب اللاتحدد والمطلق .

٦ ـــ وتفكير نيتشه تفكير نبوى نخبوى اذ أنه يرى أن حركة التطور الحقيقية لابد وان تؤدى الى ظهور السوبرمان والى ظهور أمة مختارة من هذا النوع من الرجال ، وما الانسان العادى سوى الحلقة أو الكوبرى الموصل لهذه المرحلة العليا (التى توجد بطبيعة الحال مرحلة أعلى منها الى أن نصل الى الحد الاقصى « المطلق » غير المعروف) . ويسيطر على الصهيونية أيضا تفكير نخبوى يحول حياة جماهير اليهود فى الدياسبورا الى مجرد كوبرى يؤدى الى ظهور السوبرمان اليهودى والدولة اليهودية . والتفكير النخبوى بطبيعة الحال تفكير نبوى ، فالسوبرمان هو الانسان الذى يصل الى الحقيقة دون عناء والذى يحيا حياة فاضلة (مسيحانية) . وقد سيطر التفكير النبوى على نيتشه الى درجة أنه وقع احدى خطاباته بكلمة «المصلوب» وهى صفة كثيرا مايستخدمها المفكرون الصهاينة للاشارة للشعب اليهودى وللافراد اليهود .

٧ ـــ ونيتشه فى كتاباته يتحدث دائما عن الماضى والمستقبل ولايركز عيونه على الحاضر أبدا (والماضى والمستقبل دون الحاضر الحى يتحولان الى ثابتين مجردين) ، والصهاينة بدورهم لا يتحدثون عادة الا عن الماضى والمستقبل البعيدين وإن نظروا الى الحاضر فانهم ينظرون اليه فى ضوء اهتمامهم بالماضى والمستقبل . واذا بدأ

اى مفكر او سياسى مثل افنيرى او جولدمان او دوبنوف فى الاهتمام بالحاضر كواقع تاريخى محسوس فان الصهاينة يتهمونه فى التو بالسلبية والتخاذل .

٨ — ودائرية الفكر الصهيونى تشبه فى كثير من الوجوه الفكرة النيتشوية بخصوص العود الابدى. يقول نيتشه على لسان زرادشت: « سأعود مع هذه الشمس ، وهذه الأرض وهذا النسر ، وهذا الثعبان — لا الى حياة جديدة أو حياة أفضل ، أو حياة تقرب من هذه . سأعود أبدا الى نفس هذه الحياة ، فى كل صغيرة وكبيرة منها ، لكى أدعو مرة أخرى الى العود الإبدى لكل الاشياء »(١) ، وهذا هو التوازن الآلى الذى ينجم عن تحدد الهدف وثباته والدوران حول المطلق .

٩ — ونيتشه بتفكيره النبوى المطلق لايتحدث عن السعادة الفردية او عن السعاد عامة ، فالسعادة من شيم الضعفاء والعبيد اما السوبرمان فيعلو على الخير والشر. وتجاهل السعادة كقيمة انسانية هو أيضا احدى سمات الفكر الصهيونى ، فالصهاينة مشغولون بتصوراتهم المثالية المسيحانية عن الدولة اليهودية والشعب المختار وبالتالى فهم ينسون الفرد اليهودى المحسوس نفسه — ان الوجه الصهيونى مثل الوجه النيتشوى الفاشى لاتظهر عليه اية اشراقات انسانية ولاتعلوه أى ابتسامة ، انه وجه غاضب وميت فى الوقت ذاته ، مركزة عيونه على الأزلية ، والقارىء لكتابات المفكرين الصهيونيين يحس بالاختناق الشديد لانه لاتلفحه اية نسمات انسانية .

حينما وصف ايخمان نفسه بأنه صهيونى ، هل طرأ له على بال هذا التطابق شبه التام بين الصهيونية والنازية ؟

---

(١) فؤاد زكريا ، نيتشة (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٦) ١٣٩ .

الخاتمة

وبعد ـ حاولنا فى هذه الدراسة ان نصف ونقيم البنيةالأسطورية للفكر الصهيونى أو النموذج المجرد الذى يضم شتى الإيديولوجيات الصهيونية . ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن هذه البنية هى أساسا « نموذج فكرى » جردناه من دراستنا للمدارس الصهيونية المختلفة . فهناك مثلا الصهيونية الدينية والروحية التى تتجاهل الوجود اليهودى الانسانى تجاهلا كاملا وتحصر اهتمامها فى اليهودية وأساطيرها ومثلها ، وهناك أيضا الصهيونية السياسية التى تحاول ان تصفى العنصر الدينى وتؤكد العنصر القومى . الا أن الصراع بين المدارس الصهيونية المختلفة كان صراعا فكريا مجردا نظرا لانفصاله عن الواقع والتطبيق ، ولكن بظهور دولة اسرائيل تفجرت كل الاستقطابات والتناقضات الكامنة فى الصهيونية.ولعل أهم تعبيرعن هذا الوضع الجديد فى صفوف اليهود خارج اسرائيل هو مايسمى «بصهيونية الدياسبورا» وهو ضرب من الصهيونية يؤمن به يهود المنفى وحدهم ، خاصة فى الولايات المتحدة ، الذين يودون تحويل اسرائيل الى « مركز روحى » يزورونه فى عطلاتهم السنوية وأينما شاءوا دون أن يهاجروا اليه للاقامة الدائمة ، أى انهم ينسلخون الى حد ما عن البانثيزم اليهودية ويضعف ارتباطهم الازلى بأرض الميعاد نتيجة لضغط واقعهم المحسوس ومصالحهم الاقتصادية المباشرة على وعيهم الصهيونى الزائف ، ويعد ناحوم جولدمان من أهم الممثلين لهذا التيار . أما داخل اسرائيل ذاتها فقد ظهرت تيارات عديدة ، وان كانت لم تزل ضعيفة ، تطالب الاسرائيليين بأن ينظروا لانفسهم نظرة أكثر تاريخية وعقلانية ، باعتبار أنهم يعيشون فى واقع تاريخى جديد عليهم التعامل معه والانتماء اليه وأن يبتعدوا عن التصورات الطوباوية الصهيونية الجتوية حتى تصبح اسرائيل دينامية مستقلة عن « يهود العالم » ، ومن أهم ممثلى هذا التيار المفكر الاسرائيلى

يورى افنيرى . وسنعرض بالتحليل لبنيات الصــهيونية الفرعيــة وصهيونية الدياسبورا والتيارات الفكرية الجديدة التى نشأت فى اسرائيل فى دراسة لاحقة نقوم باعدادها فى الوقت الحاضر .

ولكن الفكر لايتطورمن تلقاء نفسه والعقل ليس شيئا يهبط علينا من السماء ، بل هما نتاج ممارستنا اليومية . وممارسة الاسرائيلى اليومية قد تكون قد أبعدته الى حد ما عن الاساطير اليهودية القديمة، كما أنها ولاشك فجرت بعض التناقضات الحقيقية فى حياته مثل الصراعات الطبقية والعنصرية التى يشاهدها المجتمع الاسرائيلى ، ولكن هذه التناقضات لاتضغط عليه بعد بالشكل الكافى الذى يسمح له بالتحرر من وعيه الصهيونى الزائف . فهو لا يزالمتمسكابقانون العودة ولا يزال يشجع الهجرة اليهودية الى أرض الميعاد منكرا هذا الحق على الفلسطينى صاحب الأرض . بل أنه لازال غير قادر على فهم عناد الفلسطينيين واصرارهم على العودة ، مع انه يجد ذلك منطقيا وطبيعيا للغاية بالنسبة لليهود الذين يسكنون الهند والحبشة ونيويورك وبيرو وكييف . وكل هذا يدل على أن الصهيونية لاتزال ذات فعالية على المستوى الوجدانى على الرغم من ضمورها على المستوى الفكرى الواعى داخل اسرائيل ، وعلى الرغم من اختفاء الظروف « الموضوعية » التى أدت الى ظهورها الى حيز الوجود .

وهذا الوعى الزائف سيقدر له الاستمرار ، بل والانتصار ، أن لم يتحرك الفلسطينيون والعرب ليكبدوا الاسرائيليين ثمن تجاهلهم للواقع والتاريخ العربيين . فالممارســة العربيــة وحدها هى التى ستحسم الموقف ، وهى وحدها قادرة على تحرير الاسرائيلى من وعيه الزائف . ان اللاعقلانية الصهيونية لن تنحسر عن المنطقة ، ولن تسود الأوضاع العقلانية التىتعبر عن امكانيات المنطقة الحقيقية الا عن طريق تأكيد الشعب الفلسطينى خاصة والشعب العربى عامة لوجوده ودوره .

وأنا هنا لا أقترح « مطلقا عربيا » فى مقابل « المطلق الصهيونى »، فأنا من المؤمنين بأن الكفاح العربى المسلح ضــد الغزو والوجود الصهيونى لابد وأن يصاحبه محاولة جادة وخلاقة للتعرف على كل

الحركات العقلانية الثورية داخل اسرائيل ولتشجيعها وتبنيها ، والا سقطنا فى هوة التصنيف الصهيونى الميلودرامى : اليهودى فى مقابل الجويم ، على أن نلعب نحن الدور الأخير فى دقة واتقان .
وأنا هنا لاأعارض « المطلق العربى » على أساس أخلاقى وحسب ، وانما على أساس علمى عملى أيضا ، فمحاولة ترجمة أى مطلق الى واقع محسوس مسألة تستلزم تضحيات انسانية وحضارية ليس لها ما يبررها ، كما أنه أمر فى النهاية مستحيل فكل رؤية لا تأخذ مكونات الواقع فى الاعتبار ، ان حدوده أو امكانياته ، تظل حلما وسرابا ، أما الرؤية النسبية فهى من الممكن أن تتحول الى واقع حى من خلال الارادة والممارسة الانسانيين لأنها نابعة من الواقع الحقيقى ذاته .

ولكن الحوار وحده ان لم تسانده القوة العربية الضاغطة ، لن يجدى فتيلا ، حتى ولو كان مع أعقل العقلاء الاسرائيليين وأكثرهم حكمة وثورية ! اذ أن مثل هذا الحوار سيكون بمثابة دليل تستخدمه السلطة الصهيونية الحاكمة لتبين ضعف العرب وتخاذلهم أمام زحف المطلق الصهيونى المسلح !

مطابع الأهـــرام التجارية

